

التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
١٣٠٧ - ١٣٧٦ رحمه الله

تصحيح
الفقير إلى مولاه
محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة - ص.ب: ٢٩٢٨
هاتف: ٥٥٠٥٣٠٥ - فاكس ٥٥٠٥٣٠٥
هاتف: ٥٤٥٧٦٠٦ - فاكس ٥٤٥٧٦١٠

الصف والإخراج دار عالم الفوائد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربه. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أهل البر والوفاء، ومعدن التقوى والصفاء، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فإن علم التوحيد أشرف العلوم وأساسها، فبالتوحيد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٥] فبالتوحيد مع رحمة الله تُنال الكرامات، وترفع الدرجات، وتندفع الشرور والمهلكات. وقد ألف شيخنا عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله في هذا شرحًا لأبيات من «الكافية الشافية» لابن القيم موسومًا بهذا «كتاب شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»، ورأيت أن أجعل عنوانه «التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»، وقد طبع في حياة المؤلف

مختصر هذا الكتاب بعنوان «الحق الواضح المبين»، ولكنه مختصر غير واف بالمقصود. ولما عثرنا على هذا بخطه رحمه الله رغبنا في نشره من أجل الفائدة، وهذه أول طبعة منه، وقد عنيت فيها بتصحيح الأخطاء في بعض الآيات وعزوها إلى السُّوَرِ وترقيمها، وعزو النقول إلى مصادرها، ووضعت له فهرسًا.

فإليك أيها القارىء الكريم تزف هذه الجوهرة النفيسة، والدرة الثمينة، فهي كنز من كنوز علم التوحيد. رحم الله ناظمها وشارحها، فإنهما بذلا مجهودًا عظيمًا فيها، فجزاهما الله خير الجزاء، وضاعف لهما الأجر بمنّه وفضله إنه الجواد الكريم.

كتبه تلميذه

محمد بن سليمان البسام

بداية الشرح من أصل المؤلف

ولكن [illegible] الإحساس كل الإحساس فأنا [illegible]
[illegible] اللهم العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة وأن تحفظ لنا ديننا
من كل شرك وشبهة وبدعة وضلالة ومعصية [illegible]
تم ما أردت تعليقه ولله الحمد والمنة والفضل والإحسان وصلى الله على محمد
وسلم تسليما كثيرا. فرغت من تسويده في ٢٣ شعبان ١٣٤٤
[illegible] الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

الصفحة الأخيرة من الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله العظيم الكبير، الحميد المجيد، الذي له الألوهية وصفا كما العبودية وصفًا للعبيد، الموصوف بالأوصاف الكاملة العليا، المدعو بالأسماء الحميدة الحسنى، الذي له كل كمال وجلال وجمال، ولديه كل إحسان ونعمة وإفضال، الذي خلق الخلق وأدرّ عليهم واسع الرزق ليقوموا بتوحيده ومحبته وعبادته، فيثيبهم ويتم عليهم نعمته بأصناف كرامته، أحمده على ماله من وصف عظيم، وإحسان جسيم، وبر وتكريم، وأشهد أنه الإله حقًا، الذي دل على توحيده جميع أدلة العقل والنقل، وأذعن لعبوديته أهل الكمال والفضل. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل العارفين، وأجلّ الموحدين، وواسطة عقد نظام الأنبياء والمرسلين، وهو الإمام الكامل لجميع العابدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، وأوجدهم للقيام بمعرفته ومحبته، وبيّن لهم في كتبه المنزلة من السماء وعلى ألسنة رسله تبيينًا كافيًا، وأوضح لهم جميع الطرق الموصلة إلى هذه الغاية الفاضلة توضيحًا وافيًا، خصوصًا في القرآن العظيم وعلى

لسان محمد النبي الكريم، فإن في القرآن والسنة من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته وتوحيده ماليس في غيرهما، فتعين على العباد الإقبال عليهما، والتدبر والتفكر فيهما، إذ لا سبيل لهم إلى معرفة ما خلقوا له إلا بمعرفتهما، ولا طريق لهم إلى الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته إلا بالقيام بحقهما.

ولما كان الباري تعالى قد امتن على هذه الأمة بعلماء ربانيين، وفضلاء متقنين، قد بذلوا نفائس أعمارهم، وأعملوا جواهر أفكارهم في استخراج كنوز الوحي ومعانيه، وحل ألفاظه المعصومة ومبانيه، فحصل لهم به علم كثير وفضل غزير، وصاروا الهداة للأمة الأئمة، واقتدى بهديهم وسيرهم وطريقتهم جميع أصناف الأمة. وممن له في هذا الشأن القدم العليا، والقدح المعلى، والباع الأعلى: الإمامان العظيمان، والحافظان الثقتان، شيخ الإسلام تقي الدين الإمام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، والإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، قدس الله أرواحهما، فإنه قد حصل لهما من العلم والفهم للكتاب والسنة واستخراج علومهما مافاقا فيه كبار العلماء، وسبقا فيه الجهابذة النبلاء، خصوصًا علم التوحيد والعقائد السلفية، فإن الله منّ على المسلمين بهما، وبينا لهم من ذلك مالم يبينه أحد، ونصرا مذهب أهل السنة والحق نصرًا عظيمًا، ودحضا مذاهب الضالين والمبتدعين، فصنفا في ذلك المصنفات التي سارت في مشارق الأرض ومغاربها، وانتفع بها

الموافق والمخالف. ومعرفة كتبهما والوقوف عليها فيه كفاية لمعرفة أقدارهما وعلو مراتبهما.

ولما كانت «الكافية الشافية» لشمس الدين ابن القيم قد اشتملت على مالم يشتمل عليه كتاب في فن التوحيد والعقائد والأصول، واحتوت على تفاصيل كثيرة لا توجد في سائر الكتب، حتى كتب مؤلفها، وكان قد تكرر عليّ الطلب من بعض الأصحاب في وضع تعليق عليها، فرأيت ذلك من الأمور المتعسرة عليّ، لأنه يستدعي وقتًا كثيرًا، ويشغلني عن ماهو أهم عندي منه. ثم استخرت الله تعالى على وضع شرح لطيف على توحيد الأنبياء والمرسلين منها، ومتعلقاته ماهو أهم مافيها وأحسنه، والحاجة بل الضرورة ماسة إلى معرفته، وربما كان الاقتصار عليه أولى وأنفع من السعي في شرح جميعها لأمور كثيرة، وأكثرت فيه من النقل لعبارات المؤلف في كتبه التي فيها إيضاح وتبيين يُعين على فهمها، لأنه أحسن ما يشرح كلامه بكلامه، فجاء بحمد الله كتابًا وافيًا بمقصوده، محتويًا على جواهر نفائس علم التوحيد، الذي هو أشرف العلوم على الإطلاق.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل
في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين، ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة، الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته، وأدلته وبراهينه، وآثاره الفاضلة، فهو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأقام الأدلة والبراهين على صحته، وتعينه طريقًا للنجاة، وأنه لا خير ولا سرور ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بسببه، وهو الذي أعد الله لأهله ومن قام به أنواع الكرامات، ولمن لم يقم به أنواع العقوبات، وهو الذي عليه المدار والأساس لجميع الأعمال، فكل عمل غير مبني على التوحيد فهو باطل مضمحل، وكل بناء بني على غيره فهو بناء على شفا جرف هار، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق، وأكملهم عقولاً وآراء، وأجمعهم للمحاسن، وهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم.

ونَبَذَه ورده كل ملحد ومعطل، ممن مرجت أديانهم، وفسدت عقولهم، واكتسبوا شر الأخلاق، وعطلت قلوبهم من معرفته

ومحبته، وألسنتهم من ذكره، وجوارحهم من طاعته، ممن خالفوا الأنبياء والمرسلين في توحيدهم وطريقهم في الدليل والمدلول، فتوحيد الأنبياء والمرسلين مشتمل على الحق والصدق، المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح، وكل دليل نقلي صحيح. وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل، مؤيد بالشبه التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي على جهل أهلها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثم ... اجعله داخل كفّة الميزان

مع هذه الأنواع وانظر أيها ... أولى لدى الميزان بالرجحان

وهذا لأن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويبين بمعرفة الباطل، فإنك إذا وزنتَ بميزان العقل الحقيقي والفطرة الأولى التي لم تغير، والقواطع الدالة على الحقائق، توحيدَ الأنبياء والمرسلين وتوحيدَ غيرهم، وجدتَ بينها من الفروق مالا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، وكيف يوزن توحيد المعطلين والملحدين، المشتمل على مسبة رب العالمين ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى رسله وكتبه، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المشتمل على تعظيم رب العالمين وتقديسه، والثناء عليه بأكمل الثناء، ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التمثيل والتشبيه، ومشاركة

أحد من المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة. وكيف يوزن توحيد يرقى بمن قام به إلى أعلى عليين، بتوحيد ينزل بصاحبه إلى أسفل سافلين؟ أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًا وطاهرًا مرضيًا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال، وأرذل الخصال، والشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي؟

توحيدهم نوعان قولي وفعلي   كلا نوعيه ذو برهان

يعني أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي في آخر هذه الفصول، وهو المعبر عنه بتوحيد العبادة، وبتوحيد الألوهية. وسمي توحيدًا فعليًا لأنه يتضمن أفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأن لا يتخذ له شريك ولا ندّ.

والثاني: التوحيد القولي المشتمل على أقوال القلوب، وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله به. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات، الذي يدخل فيه توحيد الربوبية، وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف رحمه الله بالتوحيد القولي فقال:

فالأول القولي ذو نوعين أيـ   ـضًا في كتاب الله موجودان

إحداهما سلب وذا نوعان أيـ   ـضًا فيه مذكوران

سلب النقائص والعيوب جميعها   عنه هما نوعان معقولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله: أحدهما سلب، أي نفي للنقائص والعيوب عن الله، والثاني: إثبات الصفات الكاملة لله، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود إثبات صفات المدح والحمد، وكل مانفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص فإنه متضمن للمدح والثناء بضد ذلك النقص، من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة، وهذا السلب على قسمين، ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومنفصل هما   نوعان معروفان أما الثاني

سلب الشريك مع الظهير مع الشـ   ـفيع بدون إذن الخالق الديان

وكذاك سلب الزوج والولد الذي   نسبوا إليه عابدو الصلبان

وكذاك نفي الكفؤ أيضًا والولـ   ـي لنا سوى الرحمن ذي الغفران

يعني أن ما يتنزه الله عنه من النقص، ويسلب عنه من العيوب، نوعان:

سلب لمتصل، وضابطه: نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، كما سيأتي.

وسلب لمنفصل، وضابطه: تنزيه رب العالمين أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كنفي

الشريك لله، فإن الله متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له شريك في الملك، وليس له أيضًا ظهير أي عوين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه ينفى عنه أن يشفع أحد عنده على وجه يكون نقصًا في حق الله، كأن يشفع عنده أحد بغير إذنه، كما يشفع الوزراء عند الملوك والسلاطين. وأما الشفاعة عنده بإذنه فإنها ثابتة، كما أثبتها الله في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته تعالى وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أمره بالشفاعة فيه، ومع هذا فلا يأذن لأحدٍ بالشفاعة إلا فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا متابعًا للرسول. قال تعالى نافيًا هذه المراتب الثلاثة الملك والشركة فيه والعوين له والشفاعة بغير اذنه عن كل من عُبد من دونه من أهل السماء وأهل الأرض: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ/ ٢٢ ـ ٢٣] فقطع في هذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وأن من كان بهذا الوصف لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك يسلب وينفى عن الله الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان، وهم النصارى، حيث قالوا: المسيح ابن الله، وكذلك نسبه إليه عباد الأصنام، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من أثبت له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]، وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون/ ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) ﴾ [الزخرف/ ٨١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء/ ٢٦ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة/ ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [المائدة/ ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام/ ١٠٠ ـ ١٠١]، إلى غير ذلك من الآيات النافيات عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون فقراء إليه. فمن كان كذلك فمن أين يتخذ الصاحبة أو الولد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم/ ٨٨ - ٩٥].

وقول المصنف: «نسبوا إليه عابدوا الصلبان» هذا على لغة من يُلحِق الفعل المسند إلى الظاهر علامةَ التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة[1]، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر، فيقال: «نسب إليه عابدوا الصلبان».

وقوله: «وكذلك نفي الكفؤ أيضًا» أي يتعين أن ينفي عن الله الكفؤ، الذي نفاه عن نفسه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص/ ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم/ ٦٥]، فلا تجعلوا لله الأنداد، ليس كمثله شيء، فليس أحد من الخلق مكافئًا لله، أي مساويًا له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكماله اللائق به، فليس أحد له صفات تقارب صفات الله، أو له أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلاً، حتى يعينه الله على أفعاله، ولهذا كانت أفعال

(١) قوله الضرورة قلت: قد وردت في كتاب الله في موضع واحد في سورة الأنبياء وهي قوله تعالى ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم تحمل عليها الضرورة ولكنها لغة ضعيفة كما قال المؤلف.

العباد تابعةٌ لمشيئته، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وكذلك مما ينفى عن الله أن يكون لنا ولي من دونه يحصل لنا المطالب الدينية والدنيوية، أو يدفع عنا مضار الدين والدنيا، بل ليس لنا ولي إلا هو، فهو الذي تولى خلقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة، فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير، الشاملة للبر والفاجر. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة/ ١٠٧]. والولاية الخاصة هي ولايته للذين آمنوا وكانوا يتقون، يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس/ ٦٢ - ٦٣]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة/ ٢٥٧].

وكذلك لا يتخذ أحدًا من خلقه وليًا من الذل، لكمال اقتداره وعظمته، بل يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا منه إليهم، يحبهم ويحبونه، والحاصل أنه ليس أحد من الخلق مساويًا لرب العالمين، أو مماثلاً أو عوينًا أو وزيرًا بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهو

التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص يناقض كمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال القدرة، منزه عن ما يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من ذلك لكان ناقص القدرة. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان/ ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق/ ٣٨].

وهو تعالى موصوف بالحياة الكاملة التامة، منزه عن ما يضادها من النوم والنعاس الذي هو أصل النوم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»[1].

وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السموات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ومنزه عن كل ما ينافي ذلك، فلا يعزب أي يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيءٌ في السموات والأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران/ ٥]. وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي

(١) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ/ ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ... ـمته وحمد الله ذي الإتقان

وكذاك ترك الخلق أهمالاً سدى ... لا يبعثون إلى معادٍ ثاني

كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ... ـهم من إله قادر ديّان

أي وكذلك ينزه الله عن العبث في الخلق والأمر، وأنه خلق شيئًا عبثًا وباطلاً، أو شرع شيئًا عبثًا، لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المخلوقات وإحكامها، وإحسان المأمورات على أكمل وجه وأتمه، وهذا أمر مشهود في الخلق والأمر، تُحيِّر حكمتُه الألباب، ويستدل بما بان من الحكمة فيها على ما خفي على العباد، ومن تمام الحكمة أنه لم يخلق الخلق سُدًى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي بالبعث بعد الموت، فالحكمة والحمد دالأنِ على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية، ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون/ ١١٥ ـ ١١٦]، أي عن هذا الظن والحسبان، لأنه لا يليق بجلاله. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة/ ٣٦ ـ ٣٨]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه

مهملاً سُدَى، لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص/ ٨٥].

وكذاك ظلم عباده وهو الغني   فمـا لـه والظلـم لـلإنسـان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الظلم للعباد، بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على مالم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله تعالى، الغني عن خلقه من جميع الوجوه، العادل الحميد، فماله وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت/ ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء/ ٤٠]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه/ ١١٢]. وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا». رواه مسلم من حديث أبي ذر.

وكذاك غفلته تعالى وهو عـ   ـلام الغيوب فظاهر البطلان

وكـذلـك النسيان جل إلهنا   لا يعتريه قط من نسيان

وكذاك حاجته إلى طعم ورز   ق وهـو رزاق بـلا حسبان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الغفلة والنسيان، لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط، لا يعرض له ما يعرض لعلم غيره، من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها أو الذهول عنها. كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

[طه/ ٥٢]. وكذلك ينزه تعالى عن احتياجه إلى الطعام والرزق، لأنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق، الغني عنهم، وكلهم فقراء إليه، محتاجون إليه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦ ـ ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام/ ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي   هـو أول الأنـواع فـي الميزان

تنزيه أوصاف الكمال له عن التشـ   ـبيـه والتمثيـل والنكـران

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا   إن المشبه عابد الأوثان

كلا ولا نخليه من أوصافه   إن المعطل عابد البهتان

من مثل الله العظيم بخلقه   فهو النسيب لمشرك نصراني

أو عطل الرحمن من أوصافه   فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي، «في الميزان» أي في هذه القصيدة. وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل، المتضمن لتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به، وعن ما يناقض كماله. وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله، ونعوت جلاله، عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال علم الله أو قدرته كعلم الخلق أو قدرهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، ونحو ذلك، فإن هذا كله تشبيه لله بالخلق.

ومن كان بهذه الحال فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده، كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم، جعلوه إلٓههم ومعبودهم، فالمشبه نسيب ومشبه للنصراني، ورب العالمين فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين، فصفاته لا تشبهها صفاتهم.

وعن تعطيل صفاته ونفيها، كما فعلته الجهمية المعطلة ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة، الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض، لأنه لا يعقل ذات ليس لها صفة ولا نعت، ولا يُعقَل من قول الجهمية ومن تبعهم: «إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه» إلا العدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به. ولهذا قال المصنف: «فهو الكفور وليس ذا إيمان». ولكن سيأتي إن شاء الله في كلام المصنف حكم الجهمية وغيرهم من المعطلة، والتمييز بين من يُكَفَّر منهم ومن يُعذَر بتأويله.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطل.

فالمؤمن الموحد يصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، من صفات الكمال، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من

أوصاف الله.

والمشبه هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله.

والمعطل هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المشبه والمعطل قد حُرِمَ الوصولَ إلى معرفة ربه على وجهها، وابتلي بالتكلف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه الفطر التي لم تغير، والعقول المستقيمة، فلا معقولَ لديهم ولا منقولَ.

وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف من المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأله الهداية لأقوم الطرق واهداها.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف القسمين وأجلها، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت حيث قال:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو   صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إثبات كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلٓهية والنصوص النبوية، ثم شرع

يفصل شيئًا منها، فقال:

كعلـوه سبحـانـه فـوق السـمـ ـوات العلى بل فوق كل مكان

فهـو العلـي بـذاتـه سبحـانـه إذ يستحيـل خـلاف ذا ببيـان

وهو الذي حقًا على العرش استوى قـد قـام بـالتـدبيـر لـلأكـوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات، ومباينته لها، فقد دلَّ عليها مع النصوص الكثيرة العقلُ الصريح، فإنه عليٌّ بذاته فوق جميع مخلوقاته، ويستحيل أن لا يكون عليًا، فإنه يستحيل ويمتنع أن يكون هو نفس المخلوقات، ويمتنع أيضًا أن يكون حالاً فيها، فتعين أن يكون فوقها مباينًا لها.

وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل صريحًا، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه/ ٥]. وسئل الإمام مالك رحمه الله عن كيفية الاستواء، فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه (أي عن الكيفية) بدعة». فكما أنه تثبت لله صفاتُه على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء من جملة أوصافه الفعلية، فاستوى على العرش، واحتوى على جميع الملك، يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يوجد شيء إلا بمشيئته. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه/ ٥]. وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس/ ٣].

حـي مـريـد قـادر متكلـم ذو رحمـة وإرادة وحنـان

أي هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، لا تأخذه سنة ولا نوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان/ ٥٨].

وهو المريد القادر أي كامل الإرادة والقدرة، وجمع بينهما لأن جميع الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء والنزول إلى السماء الدنيا والمجيء يوم القيامة ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه: كالإحياء والإماتة والخلق، وجميع أنواع التدبير، وجميع الأقوال تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجِدَ عُلم أن الله أراده وخلقه، ومالم يوجد عُلِم أن الله لم يُرِده، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، وإذا كان كامل القدرة والإرادة عُلِمَ أنه ما في الكون من حول وقوة إلا مُستفادةٌ وتابعةٌ لحول الله وقوته.

متكلم أي لم يزل ولا يزال موصوفًا بالكلام، فيكلم بما أراد، كيف أراد، وحيث أراد.

ذو رحمة وحنان أي قد اتصف بالرحمة، وعم خلقه بالنعم والإحسان، والبر والحنان، واللطف والامتنان.

هـو أول هـو آخـر هـو ظاهـر هـو بـاطـن هـي أربـع بـوزان

مـا قبلـه شـيء كـذا مـا بعـده شـيء تعـالـى الله ذو السلطـان

مـا فـوقـه شـيء كـذا مـا دونـه شـيء وذا تفسيـر ذي البرهـان

فـانظـر إلـى تفسيـره بتـدبـر وتبصـر وتعقـل لمعـانـي

وانظر إلى مافيه من أنواع معـ ـرفة لخالقنا العظيم الشـان

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد/ ٢]. وقال النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**». الحديث(١).

ولهذا فسر المصنف هذه الأسماء الأربعة المباركة بما فسرها به النبي ﷺ وقال: «وذا تفسير ذي البرهان» أي تفسير الرسول الذي كلامه أعلى مراتب البيان والإيضاح بعد كلام الله تعالى، فإنه مشتمل على إثبات معانيها ونفي ما ينافيها ويضادها. وحثَّ المصنفُ على تدبر هذه الأسماء الأربعة وتعقل معانيها، وأنها مشتملة على أمور عظيمة من أنواع معرفة الله تعالى، التي بها تحيا القلوب وتستنير الأفئدة، فلنسق كلام المؤلف في «سفر الهجرتين»(٢) على هذه الأسماء الأربعة فإنّ فيه الشفاء والكفاية.

قال رحمه الله على كلام شيخ الإسلام الأنصاري في قوله: الثانية الرجوع إلى فضل الله، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط، فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأعمال والأقوال الشريفة والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) ص٤٢ نشر دار ابن القيم.

وموالاته، وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله، كما أنه الأول في كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كل شيء، فمن عَبَدَه باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرًا وباطنًا، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعةِ الأسباب والوقوفِ والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدىء بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده. وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه «الأول» على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًا وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يَفْنَى به، كما نظر العارف إليه بسبق الأولية، حيث كان قبل الأسباب كلها، فكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية، حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه، دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدي بالفضل، حيث لاسبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره. وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلَٰهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يُقْصَد ويُعْبَد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويُبرِىء، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصحّ عبوديتك، كما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه، لتصح عبوديته باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإلَٰه المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**» فإذا تحقق العبد علوّه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربا يعبده، وإلَٰهًا يتوجه إليه.

بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قَصْدُه. وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبه إلَٰهًا يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إلَٰه يعبد ويصلى له ويسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح، جال قلبه في الوجود جميعه، فوقع في الاتحاد ولابد، وتعلق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات، فاتخذه إلَٰهه من دون إلَٰه الحق، وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله، ولخيال نحته بفكره، واتخذه إلَٰهًا من دون الله سبحانه، وإلَٰه الرسل وراء ذلك كله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾ [يونس/ ٣ ـ ٤].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ... إلى قوله ... قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة/ ٤ ـ ٩]. فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقرٌّ به.

والمقصود أن التعبد باسمه «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه الظاهر، استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه «الباطن» فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويَكِلُّ اللسان عن وصفه، ثم تصطلم الاشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف، فَمَنْ رُزِقَ هذا فَهِمَ معنى اسمه «الباطن»، وصح له التعبد به. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوّ الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس مافي الذهن بمافي الخارج، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونورًا يميز به بين الهدى والضلال، وفرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه

بالعالَم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء/ ٦٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج/ ٢٠].

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو، الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة/ ٢٥٥] وقال ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾ [سبأ/ ٢٣] وقال ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة/ ١١٥]. وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص بين عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦] فهذا قربه من داعيه، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف/ ٥٦] فَذَكَّرَ الخبر وهو قريب، عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين،

فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل**»[1]. فهذا قرب خاص، غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «**أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تَدْعُون أصمَّ ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[2]. فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يَفْنَى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه.

ويعذره، لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإلّه أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء، ومن كَثُفَ ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا المعنى فليضرب عنه صفحًا إلى ماهو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المحب كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويَفْنَى عن غيره، ويرق قلبه، وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي، لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد، وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار، والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية، وإن كان مطابقًا لها، لكن المثال العلمي محله القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج.

فمعرفةُ هذه الأسماء الأربعة ـ وهي الأول والآخر والظاهر والباطن ـ هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقَبْل والبَعْد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فإحاطة أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وإحاطة ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، ومامن آخر إلا والله بعده. فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فَسَبَقَ كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل آخر شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر،

والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

هذا آخر كلام المصنف رحمه الله، وهو في غاية النفاسة في هذا الموضع، وكرر العبارات المتنوعة لأجل أن يفهم المعنى فهمًا صحيحًا تامًا، لأن هذا الموضع من أهم المواضع وأعظمها حاجة.

وهو العلي فكل أنواع العلـ ... ـو فثابتة له بلا نكران

يعني أن الله تعالى هو العلي، الذي له جميع أنواع العلو ثابتة شرعًا وعقلاً، بلا إنكار ولا تعطيل لشيء منها، فله علو الذات لأنه فوق المخلوقات، فوق العرش العظيم، قد باين العالم العلوي والسفلي، وله علو القدر، وهو علو صفاته وعظمتها، بحيث كانت صفاته عالية عظيمة، لا يماثلها ولا يقاربها صفة شيء من المخلوقات، بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا علمًا ببعض صفاته. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه/ ١١٠]. وله علو القهر، فَعَلاَ على جميع المخلوقات وقهرها، فكلها تحت قبضته، ونواصيها بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، ولو اجتمعوا على إيجاد فعل أو حركة لم يُرِدْها الله لم يقدروا على ذلك، وذلك لكمال اقتداره وعظمته، وشدة افتقار المخلوقات إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب ... التعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم، له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، بحيث لا يقدر إنسان ولا مخلوق أن يحصي الثناء على الله بعظمته. ومعاني التعظيم نوعان:

أحدهما: أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال الذي وصف به أكمله وأعظمه وأجله، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة، حتى أن من عظمته أن السمٰوات والأرض في كف الرحمن كالخردلة في يد المخلوق، كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر/ ٦٧]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر/ ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى/ ٤ ـ ٥]. وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منهما عذبته»**[1]. وقال النبي ﷺ: **«جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة**

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

عدن»[1]. فللّه تعالى الكبرياء والعظمة الوصفان اللذان لا يقادر قدرهما، ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد التعظيم من الخلق غيره تعالى، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يُطاع فلا يعصى ويُذْكَر فلا يُنسى، ويُشْكَر فلا يُكفَر، ومن تعظيمه وإجلاله أن لا يُعتَرض على شيء مما خلقه أو شرعه، بل يُخْضَع لحكمته، وينقاد لحكمه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان

وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان

من بعض آثار الجميل فربها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجماله بالذات والأوصاف وال ... أفعال والأسماء بالبرهان

لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

يعني أن الله تعالى هو الجليل الذي له جميع أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة لله محققة، لا يفوته منها

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

وصف جلال وكمال. وكذلك هو الجميل بالذات والأوصاف والأفعال والأسماء، فإن ذاته تعالى لها من الجمال مالا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جماله، حتى أن أهل الجنة مع ماهم فيه من النعيم الذي لا يوصف، واللذات التي لا يقادر قدرها، والأفراح والسرور، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ماهم فيه من النعيم، وتلاشى ماهم فيه من الأفراح، وودوا أن لو تدوم لهم هذه الحال، واكتسوا من جماله جمالاً إلى جمالهم، وكانت قلوبهم دائمًا في شوق ونزوع إلى رؤية ربهم، حتى أنهم يفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه، لأن أسماءه كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف/ ١٨٠]. وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم/ ٦٥]. ولهذا لا يسمى باسم محتمل لمدح وغيره، بل لا يسمى إلا بالأسماء الدالة على غاية المدح والحمد.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال، ونعوت ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والإحسان والجود والكرم.
وكذلك أفعاله تعالى كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر ويثنى عليه بها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها الحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا ظلم، بل كلها هدى ورحمة وعدل

ورشد. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود/ ٥٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص/ ٢٧].

ثم استدل المصنف رحمه الله بدليل عقلي على جمال الباري، فقال: كيف لا، أي كيف لا يكون جميلاً والحال أن جمال جميع الأكوان من بعض آثار الجميل، فربها الذي أعطاها الجمال أحق وأجدر منها بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، مما تبهر له العقول، وتحير له الأفئدة، خصوصًا ما يعطى أهل الجنة في الجنة من الجمال، لهم ولنسائهم اللاتي لو بدا كف واحدة منهن إلى الدنيا لطمس نوره نور الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومَنَّ عليهم بذلك الكمال أحق منهم به؟.

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل/ ٦٠] أي كل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا فإن معطيه أحق به من المُعْطَى، بما لا نسبة له بينه وبينهم إلا كنسبة ذواتهم إلى ذاته، وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والعلم والقدرة والجمال والكمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]. وقال: «**حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت**

(١) رواه مسلم عن عائشة.

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

ولهذا قال المؤلف: «لا شيء يشبه ذاته وصفاته». سبحانه أي تنزه وتقدس، عن إفك ذي بهتان أي كذب المفترين، الذين لم يقدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق عظمته، حين عطلوا أوصافه التي نطقت بها الكتب، وصرحت بها الرسل، وحسبهم خسارًا ومقتًا أن حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجَمَعَ المؤلف بين الجليل والجميل، لأن تمام التعبد لله هو التعبد له بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث تسبح القلوب في رياض معرفته وميادين جماله، وتبتهج بما يحصل لها من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعظيم   فشأن الوصف أعظم شان

يعني أن معنى اسمه «المجيد» أنه عظيم الصفات واسعها، فكل وصف من أوصافه فشأنه عظيم، فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم التي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه.

قال المصنف في «بدائع الفوائد»[2]: فإن المجيد من اتصف

(١) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.
(٢) جـ١ ص١٦٠ نشر دار الكتاب.

بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْخُ والعَفَارُ، وأمجد الناقة علفًا، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علمناه ﷺ (يعني قوله: «اللهم صل على محمد، وبارك على محمد، إنك حميد مجيد»)[1] لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي[2]: «**أَلِظُّوا بياذا الجلالِ والإكرام**». ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام**»[3]. فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله. انتهى كلامه.

(١) متفق عليه من حديث كعب بن عجرة وأبي حميد الساعدي.
(٢) عن أنس.
(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. وهو حديث صحيح.

وهو السميع يرى ويسمع كلَّ ما   في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حاضر   فالسر والإعلان مستويان

والسمع منه واسع الأصوات لا   يخفى عليه بعيدها والدان

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ   ـوداء تحت الصخر والصوان

ويرى مجاري القوت في أعضائها   ويرى نياط عروقها بعيان

ويرى خيانات العيون بلحظها   ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع البصير»، وكثيرًا ما يقرن الله بينهما، كمثل قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (١٣٤)﴾ [النساء/ ١٣٤]. فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلانيتها، حتى كأنها لديه صوت واحد، لاتختلط عليه الأصوات، ولا تغلطه اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية كلها عنده سواء. قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠)﴾ [الرعد/ ١٠]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة/ ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة، وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾

الآية.

وسَمْعُه تعالى نوعان: أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وإحاطته بها إحاطة تامة. والثاني: سَمْعُ الإجابة منه للسائلين والعابدين والمتضرعين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قول العبد في صلاته: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله لمن حمده وأثنى عليه وعبده، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم/ ٣٩].

ثم قال المصنف: «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المُبْصَرَات في أقطار الأرض والسموات، حتى أخفى ما يكون منها، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الظاهرة والباطنة، حتى أنه يرى سريان القوت في أعضائها الصغار جدًا، ويرى سريان المياه في الأشجار وأغصانها وعروقها وجميع النباتات، ويرى نياط عروق النملة والبعوضة وأصغر من ذلك. فتبارك من تنبهر العقول عند التأمل لبعض صفاته المقدسة، وتشهد البصائر كماله وعظمته ولطفه، وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب والخفي والجلي، ويرى تعالى خيانات العيون بلحظها، أي حين يلحظ العبد منظرًا يخفيه على جليسه، فالله تعالى يراه في تلك الحالة التي يحرص على إخفاء ملاحظته عن كل أحد، ويرى تقلب الأجفان حين يقلبها الناظر من آدمي أو ملك أو جني أو حيوان،

وحين يطبقها ويفتحها. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشعراء/ ٢١٨ - ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر/ ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) ﴾ [البروج/ ٩] أي مطلع، ومحيط علمه بجميع المعلومات، وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المرئيات ما نبصره ومالا نبصره.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان

وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما ... قد كان والموجود في ذاالآن

وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون ذا إمكان

هذا تفسير للعليم بأحسن تفسير وأجمعه، فهو تعالى العليم الذي له العلم العام للواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم نفسه الكريمة وصفاته المقدسة ونعوته العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون/ ٩١]. فهذا ونحوه من ذكره للممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير. ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها

وعدمها، ما وجد منها ومالم يوجد مالم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، بحيث لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن والجلي والخفي. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة/ ١١٥] وفي غيرها، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (٣٤) ﴾ [لقمان/ ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام/ ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه/ ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن/ ٤]، وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود/ ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٥) ﴾ [آل عمران/ ٤]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ/ ٣]، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فصلت/ ٤٧] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على شمول علم الله لكل شيء، وأنه لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن، ولا بعيد ولا قريب، ولا يغفل عنه ولا ينساه، ولا يعرض لعلمه

ما يعرض لعلم غيره، فإن علم المخلوق يعرض له عدم الإحاطة، ويعرض له النسيان لما علمه. والله تعالى كما قال المصنف: فهو المحيط وليس ذا نسيان، كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه/ ٥٢].

وقال الخضر ـ الذي قد علَّمه الله من لدنه علمًا كثيرًا، وخصَّه من علم الباطن بماليس لموسى ولا لغيره ـ لموسى كليم الرحمن أعلم الخلق على الإطلاق بعد محمد وإبراهيم عليهم السلام، لما لقي الخضر ليتعلم منه، مَرَّا على البحر، فنقر عصفور من البحر بمنقاره، فقال الخضر لموسى: «ما نقصَ علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر»[1].

ولما ذكر المصنف رحمه الله إحاطة علم الله بجميع الأكوان، ذكر إحاطته بجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبله، فقال: وهو العليم بما يكون غدًا، أي المستقبلات، وما قد كان، أي مضى من جميع الأمور الماضيات، والموجود في ذا الآن أي الحاضرات كلها، دقيقها وجليلها، قد أحاط الله بها علمًا. ولما خلق الله القلم قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال له: اكتب، قال ما أكتب؟ قال: اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة. ولهذا يجمع الله

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

كثيرًا بين علمه المحيط وكتابته المحيطة بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج/ ٧٠]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من الأمور الماضية، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي من الأمور المستقبلة، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]. وقال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه/ ٥١ ـ ٥٢].

وحين تستكمل خلقة الآدمي يرسل الله إليه الملك، ويأمره بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفَّت الأقلام، وطويت الصحف، وإذا مات الخلق وتفرقوا في جهات الأرض وفلوات القفار ولجج البحار وبطون الطيور والسباع، وصاروا رفاتًا، واضمحلت أوصالهم، وتلاشت أعضاؤهم فعِلْمُ الله محيط بهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق/ ٤]. فإذا نفخ في الصور أرسل الله كل روح إلى جسدها الذي كانت تعمره، ثم يوقفهم على كل ما عملوا من خير وشر، أحصاه الله ونسوه، فيعلم مقادير أعمالهم، ومقادير ثوابها وعقابها، ثم إذا استقر أهل الجنة بالجنة، وأهل النار بالنار، وجرت عليهم أحكام الجزاء، فعِلْمُ الله محيط بتفاصيل أحوالهم، وما هم فيه من النعيم والعذاب. فتبارك الله رب العالمين، ما أعظمه وأجله، وما أوسع صفاته وأكملها وأجملها.

وقول المؤلف: وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان، أي وكذلك يعلم تعالى الأمور التي لم تكن ولا تكون، من الممكنات التي لم يوجدها الباري ولن يوجدها، يعلم لو وقعت كيف تكون، وكيف ينشأ عنها. مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام/ ٢٨] فَرَدُّهم لا يكون، ولو كان على الفرض والتقدير لعادوا لما نهوا عنه، فإن أخلاقهم التي اكتسبوا فيها الشر معهم وقد عمرهم الله عمرًا يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، فسؤالهم هذا لا محل له، وهم كذبة أيضًا في هذا السؤال، لم يكن قصدهم إلا دفع العذاب الذي حتم عليهم، فقالوا ما قالوا. ومثل قوله: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام/ ١١١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء/ ٩٥]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها الإخبار عن أمر لم يكن أنه لو كان لكان كذا وكذا.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع ... أو كان مفروضًا مدى الأزمان

ملأ الوجود جميعه ونظيره ... من غير ما عد ولا حسبان

هو أهله سبحانه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

عقد المصنف رحمه الله لهذا الاسم المبارك هذا الفصل على

حدته، لشدة الاعتناء به وسعته وعظمته، فذكر أنه الحميد من وجهين:

أحدهما: من جهة حمد المخلوقات له، وذلك أنه كل حمد وقع من أهل السموات والأرض الأولين والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا وفي الآخرة، وكل حمد لم يقع من الخلق، بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان وتوالت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا حسبان، فالله سبحانه أهله ومستحقه من وجوه كثيرة. منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع المكروهات إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، ويثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

والوجه الثاني من جهة أن المحامد والمدائح والنعوت الجليلة الجميلة أوصاف لله تعالى، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله تعالى الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، لأنها كلها مدائح وكمالات، وله الحمد لأفعاله، لأنها دائرة بين الفضل والإحسان، وبين العدل والحكمة.

قال المصنف رحمه الله تعالى في كتابه «سفر الهجرتين وباب

السعادتين»[1] لما ذكر الحكمة والقدرة:

فصل

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه. فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**»[2]، فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السمآء والأرض، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده، وذلك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته، وملء ما تخلقه بعد ذلك.

---

(١) ص٢٠٢ نشر دار ابن القيم.

(٢) رواه مسلم.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءًا بحمدك وإن لم يكن موجودًا، ولكن يقال: المعنى الأول أولى، لأن قوله ما شئت من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاءه، وما شاء كان، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمله، لكنه إذا شاء كونه، فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلابد أن يكون شيئًا موجودًا يملؤه حمده. وأيضًا فإن قوله من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها، ولو أريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضًا فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملؤه الحمد، بل قال: ما شئت، والعبد قد حمد حمدًا أخبر به وأنشأه، ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه، وما يشاء بعد ذلك، وأيضًا فقوله: وملء ماشئت من شيء بعد يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك.

وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وأيضًا فإذا قيل: ما شئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئًا لما هو موجود، يشاؤه الرب دائمًا، ولا ريب أن له الحمد دائمًا في الدنيا والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود، فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير مالا نهاية له، كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: ملء مالا يتناهى، فأما ما يشاؤه الرب

فلا يكون إلا موجودًا مقدرًا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها، فهذا كله مما يشاؤه بعد. وأيضًا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته، وإما ظاهرة بمخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة، فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته، والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما مالا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مالئًا له جعله مالئًا لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السمٰوات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: على جهة التمثيل، أي لو كان أجسامًا لملأ السمٰوات والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماء، وامتلأت الجفنة طعامًا، فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلأت الدار رجالاً، وامتلأت المدينة خيلاً ورجالاً، فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطورًا فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا وذمًا لفلان فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف: أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه،

وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له. وقال عمر بن الخطاب في عبدالله بن مسعود: كُنَيْفٌ مُلِيءَ علمًا. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علمًا، ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق، وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رعبًا، وهذا أكثر من أن يستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه، وجعل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل، ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك. وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، منعوت بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزه عما يضاد صفات كماله، فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة، منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزه عن

أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام، منزه عما يضاده بوجه من الوجوه، ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًا وقادرًا.

فإذا قيل الحمد كله لله فهنا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يحمد به المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد إذًا، كما يحمد أنبياؤه ورسله وأتباعهم، فذاك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علَّم غيره من علمه مالم يكن يعلمه بدون تعليمه، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله**»[1]. وهو سبحانه له الملك، وقد آتى من المملكة بعض خلقه، وله الحمد وقد آتى من الحمد ماشاء، وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضًا داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٦/٥ عن حذيفة بن اليمان.

بالذات والأولوية أيضًا، وإذا قال: اللهم لك الحمد فالمراد به أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال لك الحمد كله، أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة، فله الملك كله.

إلى أن قال:

فصل

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية، والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حمد المدح وحمد الشكر. أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله رب العالمين، وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه، والإحسان والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر

كان نعمة، والطاعة من أجَلّ نعمه، وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ماهو نعمة أيضًا، وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للرب سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليه من التوبة والاستغفار.

إلى أن قال: والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان، فكلما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقِهِ وأمرِهِ، لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده، فهو محمود على ما خلقه وأمر به حمدَ شكر وعبودية، وحمدَ ثناء ومدح، ويجمعها التبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأعراف/ ٥٤]. فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل الى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًا، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بأمره بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان الغاية هي حمده، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره

وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

ثم ذكر الطرق الدالة على سريان حمده وشموله بتدبر أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، وأطال في ذلك، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكـ ـليم الخطاب وقبله الأبوان

كلماته جلت عن الإحصاء والتـ ـعداد بل عن حصر ذي الحسبان

لو أن أشجار البلاد جميعها الأ قلام تكتبها بكل بنان

والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمان

نفدت ولم تنفد بها كلماته ليس الكلام من الإله بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام موصوفًا، وبالبر والإحسان معروفًا، وهو الذي يتكلم بالكلام القدري الذي يوجد به الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [النحل/ ٤٠]، ويتكلم بكلامه الشرعي الديني، الذي منه الكتب التي أنزلها الله على رسله، فهو الذي يتكلم بها حقًا، ونزل بها جبريل من عنده صدقًا، ليست بمخلوقة بل هي من جملة صفاته تعالى.

وتكليمه لعباده نوعان: نوع بلا واسطة، كما كلم موسى بن عمران، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝﴾ [النساء/ ١٦٤]، وكما كلم الأبوين آدم وحواء فـ ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف/ ٢٢]، وكما نادى محمدًا ﷺ وخاطبه حين أسرى به، وكما يخاطب الله أهل الموقف، وأهل الجنة في الجنة حين يرونه، ويكلمهم ويكلمونه.

النوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة، إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولاً يكلمهم من أمره بما شاء، وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى/ ٥١].

واعلم أن صفة الكلام لله تعالى من صفاته الذاتية، من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية، حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته، فإذا كان معلومًا أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء، لأن الكلام من أجلّ صفات الكمال، التي يستحيل على الله أن لا يوصف بها، وكلماته تعالى غير متناهية، فلا تفنى ولا تبيد، فلو أن أشجار الأرض جميعها من عمرانها وقفارها وبحارها أقلام، والبحر تمده من بعده سبعة أبحر مداد، فكتب بتلك الأقلام بذلك المداد لتكسرت الأقلام ونفد المداد، وكلام الله لا يفنى ولا ينفد، وذلك أن المخلوق متناهٍ، له غاية وحد، وصفات الله ليس لها غاية ولا حد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۝﴾ [النجم/ ٤٢]، وقال

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [لقمان/ ٢٧].

وهذا كله من باب تقريب المعنى العظيم الواسع، الذي لا تدركه الأذهان إليها بهذا المثال الذي يبهر العقول، ولهذا قال المؤلف: ليس الكلام من الآله بفاني. ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق من جملة المخلوقات التي تنتهي، وكيف يكون الوصف المضاف إلى الله تعالى مخلوقًا، يلزم منه أن يكون كلامًا للخلق، فإذا كان علم الله وقدرته ونحو ذلك من أوصافه يستحيل أن تقوم بغير الله وأن تكون مخلوقة، فكلامه كذلك.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو سلطان

وهو القوي له القوى جمعًا ... تعالى رب ذي الأكوان

يعني أنه تعالى القدير كامل القدرة، فكلما أراده فعله من غير عجز ولا معارض له ولا مضاد، فإذا أراد إيجاد شيء أو إعدامه فلو اجتمعت الخليقة كلها على معارضته في شيء من ذلك لم يكن لهم قدرة على معارضته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس أنه قال لابن عباس: **«واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء (أي قليل أو كثير) لم ينفعوك إلا بشيء قدره الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك»**. وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود/ ٥٦]، وهو القوي الذي له

القوة كلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات/ ٥٨]، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فما بالخلق من قوة ظاهرة أو باطنة إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [في عدة آيات]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس/ ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا ﴾ [فصلت/ ١٥]، فمن قوته وقدرته أنه خلق السموات العظيمة، والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق، ثم يميتهم ثم يحييهم بعدما يفرقهم البلى، بل خلقهم وبعثهم عليه كنفس واحدة: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان/ ٢٨]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم/ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر/ ٥٧]، ومن قدرته أنه يحيي الأرض الهامدة اليابسة بعد موتها، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت/ ٣٩].

ومن آثار قدرته ما فعله بالأمم المكذبين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنهم لم يغن عنهم كيدهم ولا مكرهم ولا أموالهم وأولادهم وجنودهم وحصونهم من عذاب الله شيئًا، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة/ ٧٠]، وقال تعالى في سورة الشعراء بعد كل قصة يذكر فيها نجاة الرسل وأتباعهم وإهلاك من كذبهم: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾، أي على كمال رحمته التي منها إنجاء المؤمنين، وعلى كمال عزته وقدرته حيث أباد المكذبين، ولهذا قال: وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

ومن تمام قدرته وشمولها أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا، وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، من غير منافاة ولا مناقضة، فإن الأعمال يضيفها الله إليهم وينسبها لهم، وهم الفاعلون لها، وهذا معروف عقلاً وشرعًا وحسًا، والله خالق قدرتهم ومشيئتهم التي لا يوجد فعل إلا بهما، وخالق السبب التام، خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات/ ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير/ ٢٨ ـ ٢٩]، فأثبت لهم مشيئة وفعلاً، وذكر أن مشيئتهم تابعة لمشيئته وإرادته.

ومن آثار قدرته ورحمته نصره لأوليائه على قلة عَدَدهم وعُدَدهم بالنسبة إلى أعدائهم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات/ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة/ ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر/ ٥١]، ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع

العذاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع، الذي لا ينقطع ولا يتناهى، وقد أخبر عن كثير من الأشياء أنه قادر على فعلها، ولكنه لا يفعلها، لأن الحكمة تقتضي عدم إيجادها، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام/ ٦٥]، ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس/ ١٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام/ ١٤٩]، فقدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود/ ١٠٧].

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معاني

هذه الأبيات الثلاثة مشتملة على معنى اسمه «العزيز» فذكر له ثلاث معاني:

الأول: العزيز بمعنى الممتنع الذي لا يرام جنابه، لعظمة سلطانه وجليل كبريائه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(١).

والمعنى الثاني: أنه العزيز بمعنى القاهر لكل شيء، الذي قهر جميع الأشياء، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ولا حول

(١) رواه مسلم عن أبي ذر.

ولا قوة بأحد إلا بالله العلي العظيم، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، فهو الذي قهر كل شيء، وذل له كل حي، ونفذت إرادته في كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العزيز بمعنى القوي المتين، فله القوة الكاملة التي لا عجز ولا نقص فيها بوجه من الوجوه، فصار معنى العزيز بمعنى القوي الممتنع القاهر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس/ ٦٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١﴾ [في عدة آيات]، فأل تفيد الاستغراق والعموم لجميع معاني العز، ولهذا قال المؤلف:

وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

أي هذه المعاني الثلاثة قد كملت لله من جميع الوجوه، فلا نقص في شيء منها.

وهو الغني بذاته فغناه ذاتي ... له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر/ ١٥] فهو تعالى الغني الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته، بحيث لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا، وإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا رازقًا محسنًا جوادًا كريمًا رحيمًا، فلا يكون إلا غنيًا عن الخلق لا يحتاج إليهم

بشيء من الأشياء، بل هم الفقراء إليه في جميع أمورهم، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره طرفة عين.

ومن كمال غناه أن خزائن السموات والأرض بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأنفاس، وأن يديه سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه.

ومن كمال غناه أن يدعو عباده إلى سؤاله، ويعدهم بالاجابة، ويؤتيهم من كل ما سألوه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم/ ٣٤] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض وأول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، فسأله كل واحد منهم ما بلغت أمنيته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من اللذات المتتابعات والشهوات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهو الغني بذاته، المغني لجميع مخلوقاته.

ومن غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا عوينًا، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس/ ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم/ ٤٨]، تبارك وتعالى وتقدس.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه … نوعان أيضًا ما هما عدمان

حكم وأحكام فكل منهما … نوعان أيضًا ثابتا البرهان

والحكم شرعي وكوني ولا … يتلازمان وما هما سيان

بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا … والعكس أيضًا ثم يجتمعان

لن يخلو المربوب من إحداهما … أو منهما بل ليس ينتفيان

لكنما الشرعي محبوب له … أبدًا ولن يخلو من الأكوان

هو أمره الديني جاءت رسله … بقيامه في سائر الأزمان

لكنما الكوني فهو قضاؤه … في خلقه بالعدل والإحسان

هو كله حق وعدل ذو رضى … والشأن في المقضي كل الشأن

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ … ـمقضي حين يكون بالعصيان

فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ … ـمقضي ما الأمران متحدان

فقضاؤه صفة به قامت وما … المقضي إلا صنعة الإنسان

والكون محبوب ومبغوض له … وكلاهما بمشيئة الرحمن

هذا البيان يزيل لبسًا طالما … هلكت عليه الناس كل زمان

ويحل ما قد عقدوا بأصولهم … وبحوثهم فافهمه فهم بيان

من وافق الكوني وافق سخطه … أولم يوافق طاعة الرحمن

فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ... ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجـ ... ـر بل له عند الصواب اثنان

أطال المؤلف رحمه الله الكلام على هذا الاسم المبارك «الحكيم»، لاقتضاء الحال للاطالة والبسط، فإنه كما قال في آخر هذا الكلام: «هذا البيان يزيل لبسًا» إلى آخر ما ذكره. فذكر أن الحكيم من أوصاف الله تعالى نوعان: أحدهما حكم، والثاني: أحكام، وكل واحد منهما نوعان، فتصير الأقسام أربعة: حكم قدري كوني، وحكم شرعي ديني، وحكمة في خلقه، وحكمة في أمره. فذكر أن الحكم القدري والحكم الشرعي لا يتلازمان، أي لا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدم الآخر، كما هو شأن كل متلازمين، بل قد يوجد الشرعي دون القدري، وقد يوجد القدري دون الشرعي، وقد يجتمعان، ولكنهما لا يرتفعان، أي لا يفقدان كلاهما، ولهذا قال: لن يخلو المربوب أي المخلوق، وهذا شامل للمخلوقات كلها، أي لن يخلو شيء من المخلوقات من أحد الحكمين، أو منهما، بل ليس ينتفيان أي لا يعدمان، فيصير المربوب خاليًا منهما، فإن هذا محال.

وبيان ذلك أن الحكم الشرعي هو الحكم الذي تعلقت به محبة الله تعالى، وهو الحكم الذي شرعه وحكم به على ألسنة رسله، ودعوا إليه العباد، فقام به من استجاب لهم، وإذا وجد الحكم الشرعي فِعْلاً فإنه لا يخلو من الأكوان، أي لا يخلو من الحكم القدري، وذلك أن الإيمان والطاعات الصادرة من المؤمنين

بقضاء الله وقدره وتوفيقه، فإذا وجدت الطاعات وجد الحكمان مَعًا. وإذا وجد الكفر والفسوق والمعاصي وجد الحكم القدري، لكونها واقعة بقضاء وقدر، دون الحكم الشرعي، لعدم تعلق الأمر والمحبة بها، وإذا كان الأمر بالخير والإيمان والطاعة موجودًا، ولم يقم به من أمر به، كان الحكم الشرعي موجودًا لوجود الأمر، دون القدري فإنه لو وجد لحصلت، فإنه ما شاء الله كان، فالحكم الكوني هو قضاؤه على خلقه بالعدل والإحسان، أي لأن أفعاله تعالى لا تخلو من هذين الأمرين، إما إحسان ونعم، وإما عدل، وهو تقديره ما يقدره من وقوع الشر من أهل الشر، ومن عقوباتهم في الدنيا والآخرة، فإنه عدل يحمد عليه، لموافقته الحكمة، ووضعه العقوبة موضعها.

وذكر المصنف الفرق بين القضاء والمقضي، وأن القضاء وصف لله تعالى وفعله الذي يتعين الرضاء به، لكونه غير خارج عن العدل والفضل، وأن المقضي صنعة الإنسان وفعله، وذلك ينقسم إلى قسمين محمود ومذموم، فيرضى بالمحمود من المقضي، كالطاعات والإيمان الصادر من أهل الخير، ويسخط المذموم من ذلك، كالمعاصي الواقعة من فاعليها، وذلك كله موافقة لمحبة الله وكراهته، فإن الله يرضى ويحب من عباده الإيمان والشكر وأنواع الخير، ويكره منهم الكفر والفسوق والمعاصي. فالكون بالنسبة إلى الحكم الشرعي ينقسم إلى قسمين: محبوب لله ومبغوض له، وبالنسبة إلى الحكم القدري كله واقع بمشيئة الله وقدرته، ولهذا

قال: وكلاهما بمشيئة الرحمن.

فبهذا التفصيل الذي ذكره المصنف ينكشف الأمر ويتضح، ويزيل لبسًا أي اختلاطًا واشتباهًا طالما هلكت عليه الناس منذ زمان، بسبب اشتباه الحق بالباطل، وعدم تمييز الأمور وتفصيلها، فإن كثيرًا من المتكلمين أصّلوا لهم أصولاً فاسدة ينبني عليها عقائد باطلة، كما قرر كثير من أهل التصوف وأهل الكلام أن الحكم القدري مرادف للحكم الديني، وأن الله يحب كلما قدره وقضاه، وهذا من أعظم الباطل وأشده، فإنه يتضمن التسوية بين الأبرار والفجار، وبين البر والفجور، ويلزم منه إبطال الشرع وعذر من ظلم وعصى، لأنه موافق للقضاء والقدر، وهذا تكذيب لله ولكتبه ورسله. ولهذا قال المصنف: هذا البيان يزيل لبسًا طال ما هلكت عليه الناس منذ زمان، أي بسبب اختلاط الحق بالباطل، ويحل ما قد عقدوا من الأغلال، والعقائد الباطلة، بأصولهم التي بنوها، وبحوثهم التي هي نتائج آرائهم الفاسدة وعقولهم الضعيفة ومقاصدهم السيئة. فافهمه فَهْمَ بيان، لأنه موضع مُهِمٌّ خطر لا يكاد يوجد هذا التفصيل بغير كتب المصنف وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية.

إذا تقرر ما تقدم من أن الأحكام نوعان: أحكام قدرية موافقة للقضاء والقدر، وإن لم توافق محبة الله، وأحكام دينية موافقة للمحبة والأمر الديني، وإن لم يوجد معها الحكم القدري، وأنهما قد يجتمعان أو ينفرد أحدهما، فمن وافق في فعله وقوله ونيته

الحكم القدري وحده، بأن لا يكون ما فعله أو قاله أو نواه محبوبًا لله، فإنه لا يخلو إما أن يوافق سخطه أي سخط الله إذا كان ذلك معصية، وإما أن لا يوافق مرضاة الله، وذلك إذا كان ما فعله أمرًا مباحًا غير طاعة ولا معصية، فلذلك لا يعدوه ذم إذا كان معصية، أو فوات الأجر إن كان مباحًا، وموافق الديني وهو الذي امتثل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه بحسب قدرته وإمكانه، لا يعدوه أجر إن اجتهد فأخطأ الحق، بل له عند الصواب أي إذا اجتهد فأصاب إثنان أي أجران، كما قال النبي ﷺ: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»**[1]. لأن نيته الحق، وسعى لتحصيله، وذلك عمل صالح، ولكن فاته إدراكه بغير تفريط منه.

وحاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل أن الحكيم هو من له الحكم وله الأحكام، وأن الحكم نوعان: حكم كوني شامل لجميع ما قدره وقضاه وكونه من خير وشر، وحكم ديني مختص بما يحبه الله ويرضاه، وأن من وجد منه الخير بالفعل، واجتمع في حقه الحكمان معًا، ومن وجد في حقه الشر بالفعل، انفرد في حقه الحكم الكوني، لأنه بقضاء وقدر، والله لا يحب الشر والفساد، ومن توجه إليه الأمر الديني فلم ينقد له، وجد فيه في تلك الحال الحكم الديني، لأنه وجه إليه، ولم يوجد الحكم القدري، لأنه لم

---

(١) متفق عليه من حديث عمرو بن العاص.

ينقد له، ولو شاء الله لفعله.

وأن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعل الله يجب الرضاء به من غير تفصيل، لأنه عدل وإحسان لا يخرج عن الحمد والحكمة، والمقضي فعل العبد، وفي الرضاء به تفصيل، فإن كان خيرًا وطاعة وإيمانًا تعين الرضاء به ومحبته، وإن كان شرًا ومعصية وكفرًا تعينت كراهته، وإن لم يكن لا خيرًا ولا شرًا لم يتعين فيه الرضاء ولا الكراهة[1]. ثم ذكر الأحكام والحكمة فقال:

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ	ـضًا حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه	نوعان أيضًا ليس يفترقان
أحكام هذا الخلق إذ إيجاده	في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له	وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه	أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللاتي حمدن وكونها	في غاية الإحكام والإتقان

هذا النوع الثاني مما يدل عليه اسم الله «الحكيم»، وهو أن له

(١) قلت: لم يذكر هنا حكم الرضى بالمصائب، ولعله للخلاف فيه هل هو مستحب أو واجب، وقد ذكره في الدرة البهية وأنه مستحب، وظاهر كلام شيخ الإسلام الوجوب، والله أعلم.

الحكمة التامة في خلقه وأمره، وحكمته علياء لا يشابهها شيء، فليس كمثله شيء في جميع نعوته التي من جملتها الحكمة.

والحكمة في خلقه على نوعين:

أحدهما: أنه أحكم جميع ما خلقه وأتقنه بأحسن خلق وأتم نظام، لا يمكن أحدًا من الخلق أن يقترح أحسن منه، ولا يرى فيه عيبًا ولا عبثًا، فكل ما خلقه فهو محكم متقن، لم يخلق شيئًا عبثًا، ولا خلق شيئًا معيبًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص/ ٢٧]، فهم الذين يظنون بالله الظن السيء، والذي من جملته أنه يخلق شيئًا لغير فائده ولا مصلحة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر/ ٨٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة/ ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين/ ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران/ ١٩٠]، ونحوها من الآيات التي يحث الله بها العباد إلى النظر والتفكر في المخلوقات، لاشتمالها على الحكم البالغة والنعم السابغة، وأنها سالمة من كل عبث وعيب. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك/ ٣ ـ ٤]، لم ير خللًا ولا نقصًا، بل يرى جميع العالم على أتم نظام وأكمل خلق وأحسنه، فهذا نوع من أنواع الحكمة في الخلق، وهو أنها كلها

محكمة متقنة، تشاهد حكمتها بالأبصار والبصائر، ويخفى أكثرها، فيستدل بما علم منها على مالم يعلم.

والنوع الثاني: أنها مخلوقة لغاية، ومقصود بها مقصود عظيم، فخلقها الله تعالى ليستدل بها العباد على ما لله من صفات الكمال، وماله من جميل الفعال، وهذه غايات يحمد عليها، ليتضمنها ظهور آثار أسمائه وصفاته ومعرفة العباد لها، وأيضًا خلق الله السموات والأرض وما بينهما بالحق، فهي مخلوقة بالحق وللحق. ومن ذلك أنه ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وخلق الله المكلفين ليعرفوه ويعبدوه ويطيعوه لأجل أن يجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات/ ٥٦]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق/ ١٢]، ففي هاتين الآيتين الإخبار من أن الغاية لخلق السموات والأرض والجن والإنس وإنزال الشرائع على الأنبياء لأجل أن يعرفوا الله بأسمائه وصفاته، ويعبدوه بمقتضى ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة/ ٣٦]، أي معطلاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب، فإن هذا ظن فاسد، لأنه يتضمن العبث في أفعاله تعالى، وهو منزه عن ذلك، ثم قرر ذلك بدليل عقلي، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة/ ٣٧ ـ ٤٠]، فالذي نقل الإنسان بهذه الأطوار المتنوعة،

حتى أوصله إلى ما وصل إليه، لا يليق به أن يهمله ويعطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ [المؤمنون/ ١١٥]، أي تنزه عن هذا الحسبان الباطل المنافي لملكه وحمده وكماله، ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون/ ١١٦]، فإن الملك الحق لابد أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقال تعالى منزهًا نفسه عن ظن من ظن أنه يترك خلقه سدى، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتابًا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٩١]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل الكبير، وهو أن أفعاله تعالى كلها محكمة متقنة، لا عيب فيها ولا خلل، وأنه فَعَلَ ما فعله لغايات محمودة ومقاصد سديده.

ثم ذكر الحكمة الأخرى في شرعه وأنها على نوعين أيضًا:

أحدهما أنها في غاية الإحكام والإتقان، ويكفي في هذا الموضع معرفة القاعدة العامة، وهي أن الأوامر والنواهي تبع للمصالح والمنافع فعلاً وتركًا، فكل أمر مشتمل على المصلحة الخالصة أو المصلحة الراجحة فإنه مأمور به، وكل أمر مشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة فإنه منهي عنه، ويدل على هذا قوله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف/ ١٥٧]، فالمعروف

الذي يأمر به هو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً، وذلك ما ترجحت مصلحته، وفائدته في القلب والبدن والدنيا والآخرة. والمنكر الذي ينهى عنه هو ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً، وذلك ما ترجحت مضرته في الدنيا والآخرة والقلب والبدن. والطيبات التي أحلها كل مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وَصْفُهُ الطِّيبُ والمنفعة الذي يضطر أو يحتاج إليه. والخبيثات التي حرمها ضد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة/ ٢]، فالبر والتقوى الذي أمر الله بفعله والتعاون عليه كل عمل صالح وخلق فاضل وفعل رشيد وقول سديد، من الإخلاص لله تعالى، والصدق، وحسن الخلق، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى عموم الخلق، والعدل بينهم، وسلامة الصدر، والنصح للخلق، والتأدب بالآداب الحسنة، والرفق واللين والسماحة، وغير ذلك مما حث الشرع عليه.

وضد ذلك النهي عن الكبر، والتجبر على الخلق، والكذب، والرياء، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وسوء الخلق، وغير ذلك من مساوىء الأخلاق.

ومن أحكام الأمر والنهي أن شريعة نبينا محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان، فكل وقت ومحل يحتاج إليها فيه، بل لا تصلح الدنيا والآخرة إلا بالعمل بها، ولهذا كانت من أعظم الأدلة على كمال من أنزلها وعلمه وحكمته وصدق رسوله ﷺ، ولهذا

كان خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

والنوع الثاني من حكمة الأمر: أن الله أمر ونهى وشرع الشرائع ليبتلي عباده، المطيع منهم والعاصي، والصادق والكاذب، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي يحبها ويرضاها، ولتتنوّر القلوب بمعرفته، والألسنة بذكره، والأعضاء بطاعته، وليثيب المطيعين من فضله وكرمه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وليتم عليهم فضله وإحسانه، إلى غير ذلك من الغايات والحكم التي شرع الله الشرائع لأجلها.

قال المصنف في «بدائع الفوائد» جـ٤ ص١٦٢ نشر دار الكتاب: فتأمل أسرار كلام رب العالمين، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد، من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقًا صادرًا عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له، ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى، دون اللام المفيدة للغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمالها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما

حكمة كلية ومصلحة وحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴾ [النمل/ ٦]. فأخبر عن مصدر المتلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلاً وهدى ورشادًا، وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: يا ويلتى أألد وأنا عجوز؟ قالوا: كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم، وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لهما على الكبر. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على إلههم، ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله، وأن لقاؤه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رءآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد، لأنها شهادة حال لا تقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده شاهدًا دالاً على فاطره وباريه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله، حتى يتبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لو تأملوه

لوجدوه مركوزًا في فطرهم مستقرًا في عقولهم، وأن مايشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به عنه رسله من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقاءه ووجود ملائكته. وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على من سبقت له من الله سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد، وطريق سهلة واضحة برهانية، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته، والشهادة بأنه لا إله إلا الله والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيه، وانكشف عن قلبه حجاب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ ﴾ [الزخرف/ ٢٢]، فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن على كل كلمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الجاثية/ ٣ ـ ٥]، ثم تأمل وجه كونها آية، وعلى

ماذا جعلت آية؟ على مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط، كآخر آل عمران، وقوله في سورة الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ إلى آخرها، وقوله في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [٥٩] إلى آخر الآيات، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن، وكقوله في سورة الذاريات: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [٢٠ ـ ٢١]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف/ ١٠٥]، فهذا كله من الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله تعالى، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئًا، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق/ ١٢]، فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات/ ٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة

من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

فأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم/ ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)﴾ [طه/ ١٥]، وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾ [النحل/ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... إلى قوله ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾ [يونس/ ٣ ـ ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون/ ١١٥]، ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون/ ١١٦]، وتأمل مافي هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان، الذي ظنه أعداؤه، إذ هو مناف لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في ملكه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك،

إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بأمره وفعله، والرب تعالى مالك الملك، فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٩١]، ومن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك قوله الحق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله تعالى بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقًا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثًا، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة/ ٣٦]، قال الشافعي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب، وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي، وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة/ ٣٧ ـ ٣٨]، فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل

قلب النطفة وصرفها، حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها، فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا، فكيف يتركه سدى، لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما يدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الانسان وباريه، كذلك يدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا، أو يتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كيف كان هذا الزعم منهم قولاً بأن خلق السموات والأرض باطل، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧﴾ [ص/ ٢٧]، فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولاً، ولم يجعل لهم أجلاً للقائه، كان ذلك ظنًا منهم أنه خلق خلقه باطلاً، ولهذا أثنى على عباده المتفكرين في مخلوقاته، بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ

ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ [آل عمران/ ١٩١ ـ ١٩٢]، فلما علموا أن خلق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران/ ١٩٣]، فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض الإقرار به تعالى وبواحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدوها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم فيها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة/ ٣٥]، وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه، إذ يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء/ ٥٧].

على أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة ذكرتها في كتاب «التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية»، فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنه لم يخلقهما عبثًا باطلاً، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته والإيمان به.

وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قطرة من بحر لا ساحل له،

فلا تستطله، فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس، ولا يقبله كل محروم، والله يختص برحمته من يشاء.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو كما ذكره في غاية النفاسة، ويوضح هذا المبحث توضيحًا تامًا، وإذا شئت أن تعرف تفاصيل الحكمة في الشرع فاعتبر المسائل مسألة مسألة، فإنك تجدها في غاية الإحكام والإتقان، وفي أعلى درجات الحكمة والمصلحة، ولهذا كان الفقهاء والمتكلمون على الأحكام الشرعية يعللونها بالمصالح والحكم والمناسبات، فلو كان الأمر والنهي والتحليل والتحريم غير تابع للحكمة لم يكن فائدة في تعليل الأحكام والاحتجاج بها عليها. ومن أراد التوسع في بيان حكمة الله في شرعه وقدره إجمالاً وتفصيلاً وتأصيلاً، فعليه بكتاب «مفتاح دار السعادة» للمصنف رحمه الله، فإنه بسط الكلام فيه بسطًا شافيًا، وفيما نبهنا عليه من ذلك كفاية والله أعلم.

فصل

وهو الحيي فليس يفضح عبده ... عند التجاهر منه بالعصيان

لكنه يلقي عليه ستره ... فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حيي ستير يستحي من عبده إذا مدّ يديه أن يردهما

(١) عن سلمان الفارسي.

صفرًا». وهذا من رحمته وكرمه وكماله أن العبد يجاهره بالعصيان، وهو الفقير إلى ربه غاية الافتقار، حتى أنه لا يمكنه أن يفعل معصية الله إلا بالتقوي عليها بنعم ربه، فيستحي ربه الكريم الرؤوف الرحيم من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة عليه، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر مالا يخطر على البال، ويعفو عنه، ويغفر له ذنوبه، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال المَلَكُ الكريم يصعد إليه منهم بعمل قبيح، ويستحي تبارك وتعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد إليه يديه أن يردهما من غير شيء، بل يدعو العباد إلى دعائه، ويعدهم بالإجابة، وهو الحيي الستير، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة. ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه، ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور/ ١٩]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك قال: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتابه بيمينه»**(١).

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

ومن العجب أن الكريم يستحي من فضيحة عبده، والظالم الجاهل لا يستحي من ربه، بل لا يزال دائبًا في معصيته، متبعًا لسخطه، يدعوه ربه إلى بابه فيشرد عنه، ويدعوه عدوه إلى ولايته فيلبي دعوته، قد أقبل على عدوه الذي يشقى بطاعته في دنياه وأخراه، وتولى عن وليه الذي كل السعادة في الإقبال عليه والاشتغال بخدمته، وكل الأرباح في معاملته، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف/ ٥٠]. ولما كان ترك الحق وترك بيانه على أي حال كان، لا يكون من الحياء المحمود، أخبر تعالى أنه لا يستحي من الحق، فقال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب/ ٥٣]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة/ ٢٦]، وذلك لأن بيانه الحق لعباده بأي طريق كان، من أَجَلِّ نعمه عليهم.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

وهو العفوّ فعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى الحليم الذي له الحلم الكامل، العفوّ الذي له العفو الشامل. ومتعلق هذين الوصفين الكريمين معصية العاصين وذنوب المجرمين، فإن الذنوب في الأصل تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة، فحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ليتوبوا من عصيانهم. وعفوه تعالى يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب العفو من الاستغفار والتوبة النصوح، فإن حلمه وعفوه وَسِعا أهل

السموات والأرض، فلولا حلمه وعفوه لغارت الأرض بسكانها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل/ ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر/ ٤١].

وهو تعالى عفو يحب العفو، ويحب من عباده أن يجتهدوا في تحصيل أسباب عفوه، من السعي في مرضاته على الدوام، والعفو عن زلات العباد، قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: يارسول الله إن وافقت ليلة القدر فبم أدعو؟ قال: قولي: «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» رواه مسلم. فمن سامح عباد الله سامحه الله، ومن عفا عنهم عفا الله عنه.

ومن كماله تعالى أن عفوه مقرون بالقدرة، فيعفو عن قدرة، لا كمن يعفو لعجزه عن الانتقام، ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء/ ١٤٩].

ومن تمام حلمه وعفوه أن المجرم الذي أفنى عمره بالكفر به وبرسله وبتكذيبه، وتكذيب رسله، والسعي في محاربته ومحاربة أوليائه، والحرص على إطفاء الحق وإظهار الباطل، أنه إذا تاب توبة نصوحًا، ورجع إليه نادمًا على جرمه، فإنه يعفو عنه في ساعة واحدة جميع ما تقدم من المعاصي والإجرام. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال/ ٣٨] وقال تعالى لما ذكر أصحاب الأخدود الذين حرقوا أولياءه المؤمنين بالنار، يدعوهم

إلى التوبة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج/ ١٠]، وقال النبي ﷺ: «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها**»(١).

وهو الصبور على أذى أعدائه ... شتموه بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولد وليس يعيدنا ... شتمًا وتكذيبًا من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه ... لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم ... يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الثابت الصحيح: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**»(٢). وبما ثبت عنه ﷺ في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدًا، وأنا الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد**». ولهذا قال المصنف: وهو الصبور على أذى أعدائه، شتموه أي

(١) رواه أحمد في مسنده ٤/١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥ عن عمرو بن العاص، وليس عنده إلا القسم الأول.
(٢) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

سبوه سبًا لا يليق بجلاله، ونسبوه للبهتان الذي يتنزه عنه، فالشتم هو السب بقولهم: له ولد، فإن هذا مناقض لوحدانيته وغناه، وأنه مالك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [يونس/ ٦٨] عن هذه النسبة الباطلة التي لا تصدر إلا من أعظم المبطلين، ثم ذكر ما يدفع ذلك فقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس/ ٦٨]، ثم ذكر مصدر هذا القول الذي قالوه، وأنهم يقولون ويتكلمون بلا علم، وهذا من أعظم المحرمات، فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ليس عندكم أدنى حجة بهذا القول الذي قلتم، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس/ ٦٨]، ثم ذكر أنه افتراء، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس/ ٦٩]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون/ ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة/ ١١٦]، ونسبته للبهتان هو تكذيبه بقول المنكرين للبعث: لن يعيدنا، وهذا تكذيب له ولرسله، قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن/ ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم/ ٢٧]، فلم يبال المعاندون بقول الله، بل كذبوه ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء/ ٤٩] أي لا يكون ذلك بزعمهم، فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة العظيم بقدرة العبد الضعيف، ولم يفقهوا قوله تعالى مخبرًا عن عظمته وكمال اقتداره: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان/ ٢٨]، ﴿لَخَلْقُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر/ ٥٧].

فقول المؤلف «شتمًا» عائد إلى نسبة الولد له، وقوله «تكذيبًا» عائد لانكارهم البعث. ثم قال: هذا وذاك أي نسبة الولد والتكذيب بالبعث بسمعه تعالى، يسمع ما به ينطقون، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، والحال أنه لو شاء لعاجلهم بكل هوان، أي بكل عقوبة تستأصلهم، لكمال قدرته، وعدم امتناعهم عن تنفيذ إرادته فيهم، ومع هذا يعافيهم ويرزقهم، فيُدِرُّ لهم الأرزاق، وينعم عليهم بالنعم، وهم يؤذونه بالشرك والكفران، فهل مثل هذا الصبر شيء، فإنه صبر متضمن لإحسانه وقدرته، فإن الصبر قد يوجبه عدم قدرة الصابر على مقابلة المؤذي، وقد يصبر على الأذى ولا يحسن إلى من أساء إليه، وأما الله تعالى فهو الصبور على الحقيقة، يؤذيه العبد الضعيف العاجز بمعاداته ومعاداة رسله، ومحاربة أوليائه، والسعي في إطفاء دينه، وناصيته بيد الله، وهو المتصرف فيه في حركاته وسكناته، ومع ذلك يمهله، ويستدعيه إلى التوبة، ويحثه على الإنابة ويُدِرُّ عليه الأرزاق الواسعة. فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، الصابر الذي يحب الصابرين، ويعينهم في جميع أمورهم.

فصل

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

«الرقيب» و«الشهيد» مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع

المعلومات الجلية والخفية. ولهذا قال المصنف: وهو الرقيب على الخواطر، أي يعلم ما يخطر في القلوب من الأفكار والوساوس التي لم يتكلم بها العبد، وعلى اللواحظ بالأبصار اللواحظ الخفية والجلية، فإذا كان رقيبًا على الخواطر واللحظات فكيف لا يكون رقيبًا على ماهو أظهر منها من الأفعال بالأركان والحركات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب/ ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة/ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق/ ١٦].

ولهذا كانت المراقبة هي التعبد لله باسمه «الرقيب»، فإذا علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر العبد لهذا العلم في جميع أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان، فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. قال تعالى منبهًا على هذا المعنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء/ ٢١٧ ـ ٢٢٠]. وقال الشاعر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني

فما خطرت في القلب مني خطرة ... لغيرك إلا عرجا بجناني

ولا نظرت عيني لغيرك نظرة ... من الخلق إلا قلت قد رَمَقَاني

ولا بدرت من في بعدك لفظة ... لغيرك إلا قلت قد سمعاني

ثم قال المصنف:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيـ ... ـل بحفظهم من كل أمر عان

ذكر رحمه الله للحفيظ معنيين:

أحدهما: أنه الحفيظ عليهم جميع ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه تعالى محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ومع ذلك فقد وكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين، يعلمون ما تفعلون. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة/ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس/ ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج/ ٧٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق/ ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار/ ١٠ ـ ١٢].

فهذا المعنى من حفظه تعالى على عبده متضمن لإحاطة علم الله تعالى بأحوال عبده الظاهرة والباطنة والأقوال والأفعال، وكتابتها باللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وعلمه تعالى بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب، ثم مجازاته عليها بعدله وفضله.

والمعنى الثاني من معنى الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال المصنف: وهو الكفيل بحفظهم من

كل أمر عاني، أي مشق مكروه، وحفظه تعالى لخلقه نوعان عام وخاص:

فالعام حفظه لجميع المخلوقات، بتيسيره لها ما يقيم بنيتها، ويحفظ قوتها، وتمشي إلى مصالحها بهدايته العامة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه/ ٥٠]، أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضي له، مما هو من ضروراته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أنواع المكاره وأصناف المضار التي يشترك فيها الأبرار والفجار، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السموات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه أن يفسدوا أو يتلفوا، وقد وكل بالآدميين حفظة من الملائكة الكرام، يحفظونه من أمر الله، يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد/ ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء/ ٤٢]، أي لو تخلى عنكم الرحمن الذي رحمكم بحفظكم، من ذا الذي يقوم بكلاءتكم في نومكم ويقظتكم غيره؟ أي لا أحد يقوم بذلك سوى الرحمن، فتعين أن يكون هو المعبود وحده.

والنوع الثاني حفظه الخاص لأوليائه وعباده المؤمنين، سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم، من أنواع المحن والفتن والشبه التي يخاف معها على الإيمان، فيعافيهم الله

منها، وإن ابتلوا بها يسر لهم الخروج منها بعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الإنس والجن، فينصرهم عليهم، ويدفع عنهم كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج/ ٣٨]، ولم يذكر ما يدفع عنهم لأجل العموم والشمول، وأنه يدفع عنهم كل ما يضر إيمانهم، وعلى حسب ما مع العبد من الإيمان يكون دفع الله عنه، قال تعالى: في دفعه العام للمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة/ ٢٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج/ ٤٠]، ومن الحفظ الخاص ما ورد عن النبي ﷺ في الدعاء الذي يقال عند المنام: **«إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**(١). فصار معنى الحفيظ الذي يحفظ على العباد أعمالهم ليجازيهم بها ويحفظهم مما يكرهون.

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة ... واللطف عند مواقع الإحسان

فيريك عزته ويبدي لطفه ... والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أن اللطيف هو اللطيف بعبده في أموره المتعلقة بنفسه، وهو اللطيف لعبده، أي يلطف له في الأمور الخارجة عنه، فيسوق

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

إليه مابه صلاحه من حيث لا يشعر، ولهذا كان اللطف في أوصاف الله تعالى على قسمين:

أحدهما خبرته تعالى وإدراكه لأسرار الأمور وخفايا الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء، وهذا النوع يرجع إلى إحاطة علمه بالمعلومات، إلا أنه العلم الخاص في الأمور الخفية، ويلزم منه علمه بجليات الأمور، ومن ذلك لما ذكر تعالى تعلق علمه بما في باطن الأرض من خفايا البذور، واستخراجها من باطن الأرض بما ينزل عليها من السماء، وخبرته بشدة حاجة عباده إلى ذلك، ذكر هذا الاسم الكريم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج/ ٦٣]، فهو الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السموات والأرض، ويخرج الخبء في السموات والأرض، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام/ ٥٩]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر/ ١٩].

والنوع الثاني لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى، ويجنبه العُسرى، ويمتحنه بأنواع المحن التي تشق عليه ويكرهها، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته، كما امتحن أنبياءه بأذى قومهم، وبالجهاد في سبيله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف/ ١١٠]. وكما ذكر الله عن يوسف

عليه السلام بعد ما حصلت له المحن بإخوته، ثم بالرق، ثم بمراودة امرأة العزيز، ثم بالسجن الطويل، ثم جعل الله ذلك كله طريقًا إلى علوه وارتفاعه وملكه، وخضوع أبويه وإخوته له، ولهذا قال في آخر قصته: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف/ ١٠٠].

وكثيرًا ما يمتحن أولياءه بما يكرهون، لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: فيريك عزته، أي في امتحانك فيما تكره، ويبدي لطفه، والعبد في الغفلات عن ذا الشأن، فلو اطلع على الغيب لفرح بكثير من الأمور التي تجري عليه بخلاف ما يهوى، وكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرق العبد لمطلوب من مطالب الدنيا، من إمارة أو ولاية أو سبب من الأسباب الدنيوية، فيصرفه الله عنه رحمة به، لئلا يفسد عليه دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه. وفي الدعاء المأثور: **«اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضاءك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت»**[1].

---

(١) رواه الترمذي عن عبدالله بن يزيد الخطمي، وقال: حديث حسن غريب.

فصل

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهم في الرفق فوق أماني

وهذا قد أخذه المؤلف رحمه الله من قول النبي ﷺ لعائشة بعدما سمعت اليهودي الذي قال للنبي ﷺ: السام عليك يامحمد، فأجابه النبي ﷺ بقوله: «وعليكم». ففطنت عائشة لليهودي، فقالت: وعليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: «**مهلاً يا عائشة، إن الله رفيق يحب أهل الرفق**»[1]. الحديث. وقال: «**إن الله يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف**»[2].

فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق السموات والأرض في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة واحدة، وكذلك الآدميون والحيوانات وأنواع الأشجار والنبات يخلقها تعالى بالتدريج شيئًا فشيئًا، حتى تتم وتكبر، وهذا من رفقه وحكمته التي فيها من الفوائد والمنافع ما لا يدخل تحت الحصر. وإذا كان رفيقًا فهو يحب أهل الرفق، ويعطيهم من فضله وإحسانه مالا يعطي غيرهم، ولهذا ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه. فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون، تتيسر له الأمور، خصوصًا الذي يأمر الناس وينهاهم في مصالح دينهم ودنياهم، فإنه محتاج بل مضطر إلى

---

(١) رواه البخاري عن عائشة.

(٢) رواه مسلم عن عائشة.

الرفق واللين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/ ١٥٩].

وكذلك من آذاه الناس بالأقوال البشعة، فصان لسانه عن مشاتمتهم، ورفع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم بسبب ذلك مالا يندفع عمن قابلهم وصنع كصنيعهم، مع راحته وطمأنينة قلبه واكتسابه للرزانة والحلم، وتنزهه عن سفسفة الأقوال، ولهذا لما كان اليهود يريدون بخطابهم للنبي ﷺ بقولهم السام عليكم يريدون الموت، من كمال حلمه ﷺ لم يشتمهم، بل قال: وعليكم أي ما قلتم، ولهذا قال لعائشة: ألم تسمعي ما قلت لهم، فبين عليه الصلاة والسلام أن المقابلة قد تحصل من دون كلام مستبشع ولا قول غليظ. وقال سفيان الثوري رحمه الله: ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالمًا بما يأمر به، عالمًا بما ينهى عنه، عدلاً فيما يأمر به، عدلاً فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، فالرفق يدرك به خير كثير، ويثيب الله عليه ثوابًا جزيلاً، والعنف بخلاف ذلك.

وهو القريب وقربه المختص بالداعي وعابده على الإيمان

يعني أن القريب من أسمائه تعالى قسمان: قرب عام، وقرب خاص.

فالقرب العام إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

﴿هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة/ ٧].

والنوع الثاني قربه المختص بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد والإجابة والقبول والإثابة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾ [العلق/ ١٩]، وقال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[١]، فهذا قربه من عابديه. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٩]، فهذا قربه من داعيه بالإجابة والتوفيق.

وللمصنف ههنا كلام حسن ذكره في «بدائع الفوائد»، فلنذكره لشدة الحاجة إليه، وعدم إجزاء غيره عنه، قال[٢] في أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ... إلى قوله ... ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٥ ـ ٥٦]: وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًا، أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأل مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم/ ٣]، فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفى

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(٢) جـ٣ ص٧.

دعاءه مهما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع أخفى كلامه، فإنه لو بالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار إليه النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عُنُق راحلته»[١]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يارسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم سألوه فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأله مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ رواية عن ربه تبارك وتعالى: **«من تقرب مني شبرًا تقربتُ منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربتُ منه باعًا»**[1]. فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائليه فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وقوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف/ ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ونبأ آخر وشأن آخر، قد ذكرناه في كتاب «التحفة المكية»، على أن العبارة تنبو عنه، ولا يحصل في القلب حقيقة معناه، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها.

وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، فقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب «التحفة» أكثر من مائة طريق. انتهى كلامه رحمه الله.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وهو المجيب يقول من يدعو أجبـ ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان

جعل المؤلف للمجيب معنيين: معنى عام، ومعنى خاص:

فالعام هو إجابته تعالى لكل من دعاه دعاء عبادة ودعاء مسألة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر/ ٦٠]، فدعاء المسألة أن يقول بلسانه: اللهم أعطني كذا، أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه للبر والفاجر، فقد يدعو الكافر بحصول رزق أو دفع عدو أو خروج من مشقة، فيستجيب الله له، ولا أعظم كفرًا من إبليس، وقد سأل الله النظرة، فأنظره الله إلى يوم يبعثون، ولهذا يستدل بهذا النوع على كرم الباري وسعة جوده وحلمه.

ولا يدل مجرد الإجابة على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته، حتى يأتي ما يدل على ذلك، فإن اقترن بذلك ما يدل على تعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم، دل ذلك على صدق من أجاب الله دعاءه، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يرى الناس عيانًا إجابته، فيجعلونه من دلائل النبوة وآيات صدقه ﷺ، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة دعواتهم، يجعلونه من كرامات الله لأوليائه.

وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، ومن أعظمها: دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله تعالى يجيب

دعوته، وذلك لشدة افتقار العبد لربه في هذه الحال، وانقطاع يقلقه من المخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجاتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ولهذا قال المصنف:
وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان.

ومن أسباب إجابة الدعاء إطالة السفر، والتوسل إلى الله بأحب الوسائل المقربة إليه، من أسمائه وصفاته ونعمه، ودعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده أو عليه، وفي الأوقات والأحوال الشريفة، كما وردت بذلك كله النصوص والأخبار، التي لا يسعها هذا الموضع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود/ ٦١]، وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ﴾ [النمل/ ٦٢].

وهو الجواد فجوده عم الوجو — د جميعه بالفضل والإحسان

وهو الجواد فلا يخيب سائلاً — ولو أنه من أمة الكفران

يعني أن جوده تعالى عام لجميع المخلوقات، قد عمها وشملها، وملأها من فضله وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

وخاص للسائلين بلسان المقال، أو بلسان الحال، من برٍّ وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وناله ما طلب. قال تعالى ـ وهو الرحيم ـ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور/ ٢٨]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم/ ٣٤].

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**». وفي رواية لغير مسلم: «**ذلك بأني جواد ماجد واجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون**».

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن خزائن الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط، يخفض بها ويرفع**»(1). ومن جوده وكرمه ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن جوده وكرمه أنه المغيث لكل مخلوقاته، فلهذا قال:

وهو المغيث لكل مخلوقاته — وكذا يجيب إغاثة اللهفان

فالمغيث يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

المخلوقات عندما تتعسر أمورها، وتقع في الشدائد والكربات، من إطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وتخليص مكروبهم، وكشف الضر عنهم، وإنزال الغيث عليهم في وقت الضرورة إليه.

وكذا يجيب إغاثة اللهفان، أي دعاء من دعاه في حالة اللهف وشدة الاضطرار، فمن استغاثة أغاثه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الشورى/ ٢٨]، وقال النبي ﷺ: «إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب»[1]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ الآية [يونس/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام/ ٦٣ ـ ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا ﴾ [النمل/ ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق/ ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الانشراح/ ٦]، وقال النبي ﷺ في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي وغيره: «واعلم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٣ عن لقيط بن عامر بنحوه ضمن حديث طويل.

أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: إنه نادى في الظلمات أن ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٨٧ ـ ٨٨]، أي إذا وقعوا في الشدائد نجاهم الله، ودفعها عنهم بإيمانهم، ولهذا ينجيهم من كربات الموت وشدة القبر وأهوال يوم القيامة، حين تعجز قدرهم، ولا يبقى ملجأ يلجئون إليه إلا الله تبارك وتعالى، وكم أنجى في الدنيا من الكرب والشدائد كثيرًا من أنبيائه وأوليائه، وأغاثهم بلطفه، ودفع عنهم بعزته، ورحمهم ويسرهم لليسرى.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه … أحبابه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو … بهم وجازاهم بحب ثاني

هذا هو الإحسان حقًا لا معا … وضة ولا لتوقع الشكران

لكن يحب شكورهم وشكورهم … لا لاحتياج منه للشكران

هذا تفسير لاسمه تعالى «الودود»، وقد اختلف المفسرون في تفسيره، فقيل: إنه فعول بمعنى فاعل، وقيل: إنه فعول بمعنى مفعول. والصحيح أنه يعم النوعين كليهما كما قال المصنف، فهو الودود الذي يود عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين، وهو المودود لأوليائه وعباده المتقين، بل لا شيء أود إليهم منه، ولا تعادل

محبة الله محبة، لا في أصلها ولا في متعلقاتها ولا في كيفيتها، وهذا هو الواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة على كل محبة، ويتعين أن يكون كل محبة تبعًا لمحبة الله. قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة/ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٤]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف/ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج/ ١٤] إشارة إلى أن من أحبه الله غفر له الذنوب، ويسره لكل مطلوب. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١]. والدليل على وجوب محبة الله تعالى وأنه يجب تقديمها على سائر محاب النفوس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ... إلى قوله ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة/ ٢٤]، فتوعد تعالى من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله واتباع مرضاة الله.

ولهذا كانت محبة الله تعالى هي روح الأعمال، وجميع العبودية ناشئة من محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو الذي أحب عبده، فجعل المحبة في قلبه. ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان على الحقيقة، إحسان محض ليس المقصود به المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده، ومحبة للشكر من غير

حاجة منه إلى الشكر، بل المصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي أودع محبته في قلوب عباده المتقين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت إلى حالة تتضاءل عندها المحاب، وتسليهم عن المألوفات، وتهون عليهم المصيبات، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات، التي أعلاها حصول محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه، محبة قبلها صار بها محبًا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبته، صار بها من أصفيائه المخلصين. فنسألك اللهم حبك وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا وأهلنا وأولادنا ومن الماء البارد، واجعل كل محبة تعلقت منا بغيرك تابعة لمحبتك.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة الله التي هي أعظم المطالب: الإكثار من ذكره، وكثرة الإنابة إليه، وكثرة التقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق متابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**من عادى لي وليًا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن**

سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته». رواه البخاري[1].

والمقصود أن معنى الودود أنه المحبوب المودود، أعظم مودة وأصفاها وأخلصها من عباده المؤمنين، الواد لعباده القائلين بمحابه ومراضيه، وله الفضل والمنة في ذلك كله.

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء/ ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن/ ١٧]. فمن أسمائه تعالى: الشاكر الشكور، الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، ولا يتركه باطلاً، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بلا عد ولا حسبان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف/ ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة/ ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام/ ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) عن أبي هريرة.

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل/ ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء/ ٩٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة/ ٧].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «أن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة» وقال ﷺ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل العظيم» متفق عليه[1].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على سعة فضل الله، وأنه الشاكر لسعي العاملين، الذي لا يضيع عمل عامل، وبعينه ما يتحمل المتحملون من أجله. ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك لأجله عوضه الله خيرًا من ذلك، وهو الذي وفق عباده

(١) من حديث عبدالله بن عباس.

المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًا واجبًا عليه بالأصل، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه. ولهذا قال المصنف: ما للعباد عليه حق واجب، هو أوجب الأجر العظيم الشأن. وهذا القيد الذي قيده به المصنف أحسن من إطلاق من أطلق ذلك بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المصنف للسعي الذي لا يضيعه الله بقوله: إن كان بالإخلاص والإحسان، أي مقصودًا به وجه الله، محسنًا فيه على سنة رسول الله، لأن العمل لا يكون صالحًا حتى يوجد فيه هذان الشرطان الإخلاص والمتابعة، كما قال في موضع آخر:

فقيام دين الله بالإخلاص   والإحسان إنهما له أصلان

وقول المؤلف: إن عذبوا فبعَدْلِه، لأنه لا يعذبهم إلا بذنوبهم التي اجترحوها، بعدما قامت عليهم حجة الله، وحذرهم الله منها غاية التحذير، فإذا استمروا على الطغيان بعد ذلك، ولم يقبلوا نصائح الناصحين، علم أنهم لا يصلحون إلا للعذاب، فعدل فيهم حيث عذبهم، لأنه لم يضع العقوبة إلا في موضعها. وأما إنعامه وإكرامه فإن ذلك محض فضله وإحسانه، لأنه الذي وفقهم وأعانهم وأعدّ لهم من الكرامات مالا يقابله أضعاف أضعاف أعمالهم، ولكن له تعالى تمام الحمد وكمال النعمة، وله الفضل أولاً وآخرًا

وظاهرًا وباطنًا.

قال في «بدائع الفوائد»[1]: قد أخبر الله سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه بقوله في الحديث الصحيح: «**لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»[2].

فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم/ ٤٧]، فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على. ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار**»[3]. ومنه قوله ﷺ في

(١) جـ٢ ص١٦١.
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٣) متفق عليه.

غير حديث: من فعل كذا وكذا كان حقًا على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد، فهذا الحق الذي أحقه على نفسه. ومنه الحديث الذي في المسند عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: أسألك بحق ممشاي هذا، وبحق السائلين عليك، فهذا حق السائلين عليه هو أحقه على نفسه، لا أنهم أوجبوه وأحقوه، بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله، كما أحق على نفسه في حديث معاذ أن لا يعذب من عبده، فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يثيبهم، والحقان هو الذي أحقهما وأوجبهما، لا السائلون ولا العابدون، فإنه

ما للعباد عليه حق واجب	كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله وهو الكريم الواسع

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة/ ١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذي أحقه على نفسه وأوجبه. ونظير هذا ما أخبر به تعالى من قَسَمِهِ ليفعلنه، نحو قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٢]، وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [مريم/ ٦٨]، وقوله: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم/ ١٣]، وقوله: ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص/ ٨٥]، إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يتعلق بقوله: ما للعباد عليه

حق واجب، هو أوجب الأجر العظيم الشأن، فإن إيجابه على نفسه ما أوجبه فضل منه وإحسان، لا معاوضة ولا في مقابلة عمل مستقل من أحد من العالمين، فله المنة في هذه الدار وفي دار البرزخ ودار القرار.

فصل

وهو الغفور فلو أتي بقرابها	من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها	سبحانه هو واسع الغفران

يعني أنه تعالى الغفور الذي وصفه المغفرة للذنوب والجرائم، فلو أتى العبد بقراب الأرض خطايا وهو لا يشرك بالله شيئًا، لاقاه الله بقرابها أي بملئها مغفرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء/ ٤٨، ١١٦]، هذا مع عدم التوبة، وأما التوبة فإن الله يمحو بها الذنوب الكبار والصغار، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم/ ٣٢]، فمغفرته تعالى وسعت كل شيء، فالعباد لا يزالون يذنبون، والله يتجاوز عنهم، ويحب العفو عنهم، وهو وإن كان واسع المغفرة فإنه قد جعل لمغفرته أسبابًا تنال بها، لأنها أعظم المطالب، وذلك كالتوبة والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، ومغفرة ما يصدر منهم، وحسن الظن بالله

تعالى، وغير ذلك مما جعله مقربًا لمغفرته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه/ ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود/ ١١٥]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف/ ٩٠]. وقال النبي ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يصب منه»**[1].

وقد تكاثرت النصوص الدالة على تكفير السيئات بالمصائب والمكاره التي تصيب العبد، خصوصًا إذا عمل بما أمره الله به من الصبر والاحتساب، وقال تعالى في الحديث القدسي: **«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»**[2]. ولولا عفوه ومغفرته ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكنه يعامل عباده بالإحسان إليهم، بحصول الخيرات ودفع المضرات التي انعقدت أسبابها، فيحلها ويزيل آثارها، وسيأتي إن شاء الله وجه عدم دخول الشرك في مغفرة الله في آخر هذه الفصول.

وكذلك التواب من أوصافه ... والتوب في أوصافه نوعان

إذن بتوبة عبده وقبولها ... بعد المتاب بمنة المنان

يعني أنه التواب أي كثير التوبة على الخطائين والمذنبين، وتوبته على عبده نوعان:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم عن أبي ذر.

الأول: إذنه لعبده وتوفيقه للتوبة، فإنه لولا توفيقه لما خطر بقلب العبد إرادة التوبة، ثم لولا توفيقه لما صارت تلك الإرادة عزمًا جازمًا مقرونًا بفعل أسباب التوبة، من الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على أن لا يعود إليه، والاستمرار على ذلك.

النوع الثاني: توبته على عبده بعد توبة العبد، بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فهو الذي مَنّ بالسبب والمسبب، وله الفضل والإحسان في أول الأمر وآخره، فعلى العبد الاجتهاد في مرضاته، والشكر له على توفيقه ومنته، قال النبي ﷺ: **«التوبة تَجُبّ ما قبلها»**[1]، متفق عليه. وقال تعالى بعدما ذكر الشرك والمعاصي الكبار، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان/ ٦٨ - ٧١].

ومن لطفه تعالى وكرمه أنه يفرح بتوبة التائب، أعظم من فرح من فقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، في أرض مهلكة دوية، فطلبها حتى أيس منها، وجعل ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال إذا هو براحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة

---

(١) لم نجده في المسانيد بهذا اللفظ.

الفرح الذي أذهب حواسه وإدراكه، كما ثبت ذلك في الصحيحين[1].

فصل

وهو الإله السيد الصمد الذي	صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو	ه كماله ما فيه من نقصان

هذا معنى اسمه «الصمد» المعنى الجامع، الذي يدخل فيه كل ما فسر به الصمد، فهو الصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويقصده العالم العلوي والسفلي في حوائجه ومهماته، لا يستغني أحد عنه طرفة عين. وهو الصمد الذي له الصفات الكاملة من كل الوجوه، الذي ما في كماله من نقصان، فهو العليم الكامل في علمه، الحليم الكامل في حلمه، الرحيم الكامل في رحمته، وهكذا سائر الصفات، فالصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات لأنه كامل الصفات.

قال المصنف في «البدائع»[2]:

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناولَ الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس في ما رواه عنه ابن أبي حاتم في

(١) عن أنس بن مالك.

(٢) جـ١ ص١٦٨.

تفسيره: قال: الصمد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه وتعالى، هذه صفته لا ينبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم.

وكذلك القهار من أوصافه	فالخلق مقهورون بالسلطان
لولم يكن حيًا عزيزًا قادرًا	ما كان من قهر ولا سلطان

«القهار» هو الذي قهر الأشياء، وانقادت لعظمته ومشيئته المخلوقات كلها، فلا يحدث حادث إلا بمشيئة الله، ولا يسكن ساكن إلا بإرادته، وما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد/ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس/ ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ﴾ [يونس/ ٣١]، وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود/ ٥٦]. فالخلق كلهم فقراء

إلى الله من جميع الوجوه، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا. والله تعالى هو المالك للملك، الذي له العظمة والسلطان والتصرف.

ثم ذكر المصنف أن القهار من أسمائه مستلزم لكمال حياته وكمال عزته وكمال قدرته، لأنه محال أن يكون قاهرًا لكل شيء وهو غير حي ولا عزيز ولا قادر، ولهذا قال: لو لم يكن حيًا عزيزًا قادرًا ما كان من قهر ولا سلطان. وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول في أنواع الدلالات.

وكذلك الجبار من أوصافه ... والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرة فالجبر منه دان

والثاني جبر القهر بالعز الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسان

وله مسمى ثالث وهو العلو ... فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارة للنخلة الـ ... ـعليا التي فاتت لكل بنان

يعني أن للجبار معنيين بل ثلاثة معاني، كلها داخلة في اسمه الجبار.

فهو الجبار يجبر القلوب المنكسرة من أجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتثبيته وتوفيقه للصبر، وإعاضته على ذلك أكمل الأجر، ويجبر قلوب الخاضعين لعظمته، الخاضعين لكبريائه، ويجبر قلوب

المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وصنوف مسراته، فالقلب المنكسر لربه جبره من أقرب الأشياء، ولهذا كان دعاء المظلوم والمضطر والمريض والمسافر ونحوهم مجابًا للكسرة التي في قلوبهم، ومن هذا قول الداعي: اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني، فإن الجبر معناه جبر الشيء المنكسر بإصلاحه وتقويمه وإزالة كسره، ومنه الجبيرة وهي اليد التي تكسر فيربط عليها ما يشدها ويقيمها، فسؤال العبد لربه أن يجبره يتضمن الدعاء بإصلاح حاله، وتقويم أموره، وسائر شئونه، وإزالة ما فيه من الوهن والضعف والنقص.

والمعنى الثاني للجبار أنه القهار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والمعنى الثالث أنه الجبار، أي العالي على خلقه، الذي من عظمته وكبريائه قد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه أحد منها لكمال رفعته وجلاله، وهذا المعنى مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبارة، فالجبار العالي على كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمنكسرين، خصوصًا المنكسرين من أجله.

فصل

وهو الحسيب حماية وكفاية ... والحسب كافي العبد كل أوان

يعني أن «الحسيب» معناه الكافي لعبده جميع ما أهمه من أمر

دينه ودنياه، الحامي له من جميع المكاره، لأن الحسب بمعنى الكفاية، فالحسيب هو الكافي. وللحسيب معنى آخر لم يذكره المصنف، وهو أنه الذي يحفظ على العباد أعمالهم من خير وشر، ثم ينبئهم بها، ويحاسبهم عليها، ويعرفهم مقادير أعمالهم ومراتبها في الخير والشر، ويجازيهم عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء/ ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق/ ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر/ ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة/ ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال/ ٦٤]، أي كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به العبد من اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وبحسب عبوديته لربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر/ ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة/ ٢٨٤]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على محاسبته لعباده بما عملوه، وعلى كفايته إياهم جميع أمورهم.

وهو الرشيد فقوله وفعاله ... رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصفه ... والفعل للارشاد ذاك الثاني

يعني أن معنى «الرشيد» الذي قوله رشد، وأفعاله رشد، المرشد لكل حيران وتائه وضال إلى الصراط المستقيم بيانًا وتوفيقًا. وكلا

المعنيين حق، فهذا وصف، أي كون أقواله وأفعاله رشد، والفعل للارشاد ذاك الثاني، أي كونه مرشد الحائرين وهادي الضالين.

فأما أقواله تعالى فإنها أقوال قدرية وأقوال شرعية دينية، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء، ويدبر بها ما شاء من أنواع التصاريف، كلها حق، لأنها مشتملة على الحكمة التامة التي يحمد عليها تعالى أتم حمد وأكمله. ويُعْرَفُ ذلك باستقراء المخلوقات وما فيها من الحكم والمصالح، وأنه لا عبث فيها بوجه من الوجوه.

وأقواله الشرعية الدينية هي الأقوال التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله، المشتملة على الصدق التام في الأخبار، والعدل التام في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلاً ولا أحسن منه حديثًا، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً، صدقًا في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي، وهي أعظم ما يرشد به العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي، وهو بيان الحقائق والهدى والضلال والأحكام الشرعية، ويحصل بها الرشد العملي، فإنها تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتدعو إلى صالح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على الأفعال الجميلة، وترهب عن الأفعال الرذيلة، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو الغاوي، والله تعالى لم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل، وإنزاله عليهم الكتب المشتملة على الهدى، وكم قد هدى ضالاً، وأرشد حائرًا، فهو الرشيد في قوله وفعله وإرشاده.

والعدل من أوصافه في فعله   ومقالـه والحكـم بـالميـزان

فعلى الصراط المستقيم إلهنا   قـولاً وفعـلاً ذاك فـي القـرآن

يعني أن الله هو الحكم العدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط، وهذا معنى كونه تعالى على صراط مستقيم، كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود/ ٥٦]، وذلك لأن أفعاله تعالى كلها دائرة بين الفضل والعدل والحكمة، فكلها أفعال رشيدة مستقيمة، وجميع أقواله صدق وعدل، وحكمه الديني عدل، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه عدل، وحكمه بين عباده في الجزاء والثواب والعقاب عدل، فليس في شيء من ذلك ظلم بوجه من الوجوه، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا يحمده الخلائق بعدما يقضي بينهم في القيامة، فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر/ ٧٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى/ ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن/ ٧]، وقال تعالى آمرًا عباده بإقامة العدل والقسط: ﴿۞ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء/ ١٣٥]، ولهذا اتفقت الشرائع كلها على الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو   التنـزيـه بـالتعظيـم للـرحمـن

وهو السلام على الحقيقة سالم   مـن كـل تمثيـل ومـن نقصـان

يعني أن من أسمائه القدوس السلام، فالقدوس هو المنزه المعظم عن كل سوء، وكذلك السلام على الحقيقة، وضابط ما ينزه عنه أمران ذكرهما المؤلف:

أحدهما: أنه الكامل المنزه عن مماثلة أحد من المخلوقات، فليس كمثله شيء في جميع نعوته، لكمال أوصافه.

والثاني: أنه المنزه عن كل عيب ونقصان، والنقصان يرجع إلى ما يناقض أوصاف كماله، فالقدوس السلام يرجع معناها إلى التنزيه، ويلزم من التنزيه التعظيم والثناء عليه بصفات الكمال، لأن التنزيه والسلب المحض ليس مدحًا، حتى يتضمن إثبات ضده وهو الكمال.

قال المصنف في «بدائع الفوائد»[1]: فصل إذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى به من هذا كله، وأحق من هذا الاسم من كل مسمى به، لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص يتخيله وَهْمٌ.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

(١) جـ٢ ص١٣٥.

وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفؤ والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا من ما يضاد كمالها، فحياته سلام من السِّنَة ومن الموت والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلَهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إلَه إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمته، بل لو وضع الثواب مكان العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهمه أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدرته سلام من العبث والجور والظلم

ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. . . وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته. بل شرعه كل حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وحملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره، من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه مّا، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ليس مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله وغناه، وسلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يكون تحت شيء أو محصورًا في شيء، فتعالى الله ربنا عن كل ما يضاد غناه وكماله. وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. وموالاته لأوليائه سلام من أن يكون عن ذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى

ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الاسراء/ ١١١]. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه. وسلام مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه «السلام» كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى. وكم من يحفظ هذا الاسم ولا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني. والله المسئول أن يوفق على تعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب. انتهى كلامه رحمه الله. وقد اشتمل من تفصيل معاني هذا الاسم الكريم على خير كثير.

والبر في أوصافه سبحانه ... هو كثرة الخيرات والإحسان

صدرت عن البر الذي هو وصفه ... فالبر حينئذ له نوعان

وصف وفعل فهو بر محسن ... مولي الجميل ودائم الإحسان

يعني أن البر في نسبته إلى الله نوعان:

أحدهما: أنه البر الرحيم الذي اتصف بالجود والكرم، وكثرة الخيرات، وأصناف البر الذي لا منتهى له.

والثاني: أنه البر بمعنى أنه المحسن الذي أنعم على العباد بأصناف النعم، ودفع عنهم جميع النقم، فما بالعباد من بر وإحسان وخير وسرور في دينهم ودنياهم إلا من الله. وبر الأبرار الذي

استحقوا به دخول الجنة من لطفه بهم وتوفيقه إياهم، فمعنى البر هو المتصف بالرحمة العظيمة، الذي والى على خلقه آثارها، وأسدى عليهم من جوده ما به استقامت أحوالهم وتمت أمورهم.

وكذلك الوهاب من أسمائه ... فانظر مواهبه مدى الأزمان

أهل السموات العلى والأرض عن ... تلك المواهب ليس ينفكان

يعني أنه تعالى «الوهاب» مستمر الإحسان متواتر الفضل، لم يزل ولا يزال محسنًا متفضلاً، دائم الهبات كثير الخيرات جزيل العطايا، لايخلو مخلوق عن رحمته وإحسانه طرفة عين، فأهل السموات والأرض وأهل الدنيا والآخرة لا ينفكون عن جوده وإحسانه، ولا يستغنون عنه في حال من الأحوال، بل هم المفتقرون إليه على الدوام، فيهب لهم من إحسانه مابه تقوم أمورهم الدنيوية، ويهب لعباده المؤمنين من لدنه رحمة يَلُمُّ بها شَعَثَهم، ويصلح فيها نقصهم، ويرقيهم بها إلى أعلى الدرجات والوصول إلى أجل الكرامات، ولا يمكن أحدًا من المخلوقين تعدادُ بعض نعم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل/ ١٨].

وكذلك الفتاح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثاني

والرب فتاح بذين كليهما ... عدلاً وإحسانًا من الرحمن

يعني أن من أسمائه الحسنى «الفتاح»، وذلك على قسمين:

أحدهما: الفتاح بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله مابه تقوم أحوال المكلفين، وتستقيم أحوالهم الدينية والدنيوية، ويعرفهم كل ما يحتاجون إليه.

وأما فتحه بحكمه الجزائي فهو فتحه بين أنبيائهم ومخالفيهم، وبين أوليائه وأعدائه، والفتح يوم القيامة بين سائر الخلق حين يوفي كل عامل بعمله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل/ ١١١].

وأما فتحه القدري فهو ما يفتحه على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر/ ٢]، فهذا في فتح الخير. وقال في فتح الشر على من تعرض له: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال/ ١٩]، واستفتاحهم طلبهم أن يحل بهم ما وعدهم الله على لسان رسوله، تكذيبًا للرسول وتعجيزًا لربهم، وقال تعالى في فتحه بين أنبيائه ومن خالفهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة/ ٢٨ ـ ٢٩]، أي حين ينزل بهم العذاب الذي توعدوا به، وقال شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف/ ٨٩]، وقال في الفتح بين عباده في دار الجزاء: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ/ ٢٦].

فالرب هو الفتاح الذي انفرد بالعطاء والمنع، وهو الذي يفتح للعباد خزائن جوده وكرمه، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، وكل هذا تابع لعدله وفضله، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، ولهذا قال المصنف: عدلاً وإحسانًا من الرحمن.

وكذلك الرزاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان

رزق على يد عبده ورسوله ... نوعان أيضًا ذان معروفان

رزق القلوب العلم والإيمان ... والرزق المعد لهذه الأبدان

هذا هو الرزق الحلال وربنا ... رزاقه والفضل للمنان

والثان سوق القوت للأعضاء في ... تلك المجاري سوقه بوزان

هذا يكون من الحلال كما يكو ... ن من الحرام كلاهما رزقان

والرب رازقه بهذا الاعتبار ... وليس بالاطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات/ ٥٨]، وذكر المؤلف رحمه الله أن رزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الرزق الذي على يد الرسول ﷺ، رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائقه، ورزق البدن بالحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص الله به المؤمنين والذي يسألون منه شامل لذلك كله. فينبغي للداعي بالرزق أن يستحضر بقلبه هذه الأنواع، فإذا قال: اللهم ارزقني، فمعناه اللهم ارزقني ما يصلح به قلبي من العلم والهدى

والمعرفة، ومن الايمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهني، الذي لا مشقة فيه ولا تبعة تعتريه، وهذا وسيلة للأول، والأول هو المقصود من العبد، ولابد له من الثاني ليعد بدنه ويصلح لإقامة دين الله.

والنوع الثاني من الرزق: الرزق العام لسائر الخليقة، برها وفاجرها، بل ناطقها وبهيمها، وحقيقته هو أن يسوق الله لكل حيوان قوته الذي به تصلح بنيته ويستقيم بدنه، ولابد لكل مخلوق من هذا الرزق، وقد تكفل الله به لكل دابة، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود/ ٦]، أي فيوصل لها رزقها في أي مكان كانت، في ظلمات البحار، وفي جوف الأرض والصخور، وفي العالم العلوي أو السفلي، وهذا قد يكون بأسباب، وقد يأتي في بعض الأوقات بلا سعي من المخلوق، وقد يكون السبب مباحًا وقد يكون محرمًا، ولهذا قال المصنف: هذا يكون من الحلال كما يكون من الحرام، وربنا رزاقه بهذا الاعتبار، أي من جهة أنه أوصل إليه بقضائه وقدره مابه يستقيم بدنه، وإن كان محرمًا يلام عليه العبد، ولا يتعلق به أمر الله، بل هو منهي عنه. وقوله: وليس بالإطلاق أي وليس هذا الرزق الذي يكون من الحرام يسمى رزقًا مطلقًا، بحيث يكون رزقًا تامًا لا محذور فيه، وإنما يقال مطلق رزق.

وبهذا يعرف الجواب عن السؤال المشهور إذا قيل: هل لله على الفاجر نعمة ورحمة؟ وهل الله رزقه أم لا؟

فالجواب أن يقال: أما النعمة المطلقة والرحمة المطلقة والرزق المطلق فإن هذا مخصوص بالمؤمن المتبع لمرضاة الله، فإن هذه الأمور تكون تامة في حقه. وأما الكافر والفاجر فله من ذلك مطلق الرحمة ومطلق الرزق، فإنه لولا رحمته ورزقه لما وجد، ولما استقام بدنه، ولما حصل له ما يوافق هواه.

وفي كلام المصنف إشارة لرد قول من قال من المعتزلة وغيرهم: إن الحرام لا يسمى رزقًا لوجود التبعة فيه، وهذا قول فاسد، من لازمه أن من يغتذي بالحرام فالله لم يرزقه، وهذا مصادم لما دلت عليه النصوص، ولما تقرر عند كافة بني آدم المثبتين لوجود الله فإنهم متفقون على أن الله هو الرزاق وحده، كما أنه الخالق وحده، وأنه مامن مخلوق يخلو من رزقه في وقت من الأوقات، ولكن الحرام لا يسمى رزقًا مطلقًا، وإنما هو مطلق رزق كما تقدم.

فصل

هذا ومن أوصافه القيوم ... والقيوم في أوصافه أمران

إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران

فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني

والوصف بالقيوم ذو شأن عـ ... ـظيم هكذا موصوفه أيضًا عظيم الشأن

والحي يتلوه فأوصاف الكما ... ل هما لأفق سمائه قطبان

فالحي والقيوم لن تتخلف الـ ... أوصاف أصلاً عنهما ببيان

هذا تفسير للحي القيوم، وجمعهما في غاية المناسبة، لأن الله جمع بينهما في غير آية، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آية الكرسي وفاتحة آل عمران]، ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه/ ١١١]، وذلك أنهما ـ كما قال المصنف ـ مشتملان على جميع أوصاف الكمال ومتضمنان لذلك، فإنك إذا أعطيت هٰذين الاسمين حقهما من المعنى لم يتخلف عن ذلك شيء من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وبيان ذلك أن الحي هو من له الحياة الكاملة التامة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والحياة الكاملة مستلزمة للسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة النافذة، وسائر الصفات الذاتية داخلة في مسمى الحياة.

وأما الصفات الفعلية التي يفعلها الباري، مما يتعلق بنفسه: كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده، والكلام، وغير ذلك، ومما يتعلق بالمخلوقات: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والرحمة وأنواع التدابير الإلٰهية، فإنها داخلة في القيوم، لأن معنى القيوم هو الذي قام بنفسه بماله من صفات الكمال ونعوت الجلال، بحيث كان مستغنيًا عن غيره من جميع الوجوه، الذي قام بجميع المخلوقات في إيجادها وإعدادها وإمدادها، فكما لا وجود لها إلا بالله، فلا بقاء لها ولا صلاح إلا به، فهي مفتقرة إليه في جميع شئونها، لا يمكن أن تستغني عنه طرفة عين. ومن كمال قيوميته أنه كامل القوة

والقدرة، نافذ الإرادة والمشيئة، فعال لما يريد، قام بنفسه وقام به من سواه. فالحياة تستلزم الصفات الذاتية، والقيومية تستلزم الصفات الفعلية.

قال المصنف رحمه الله في «مدارج السالكين»(١) في منزلة الحياة في أثناء كلام له: فيشهد قيام الكون كله بالله، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه، فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيومية الصحيحة المصححة لجميع الأفعال، فالحي والقيوم من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد. انتهى.

هو قابض هو باسط هو خافض   هو رافع بالعدل والميزان

يعني أنه القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، الباسط للأرزاق والرحمة والنفوس، وهو الخافض لأقوام، الرافع لآخرين، وذلك كله عدل من الله وحكمة، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة/ ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى/ ٢٧]، فقبضه نعمة في حق عباده المؤمنين، لأنه يمنعهم به من البغي والظلم والعدوان. وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾

(١) جـ٣ ص٢٦٩ مطبعة أنصار السنة.

[الرعد/ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر/ ١٠]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء/ ١٥٨].

وإن كان تعالى هو القابض الباسط الخافض الرافع قدراً وقضاء، فلا يمتنع أن تكون هذه الأمور بأسباب من العباد، متى قاموا بها حصلت لهم، وهذا هو الواقع. فإن الأسباب محل حكمته وسنته الجارية التي لا تبدل ولا تغير، وإذا كان أعظم أنواع رفعه رفعه لأوليائه إلى أعلى عليين في محل قربه والدنوّ منه، فهذا محال أن يدرك بدون الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآيه [سبأ/ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين/ ١٨]، فجعل استحقاقهم لأعلى الأمكنة بسبب برهم. فكل قبض وبسط وخفض ورفع قدري أو ديني فإنه من الله تعالى، لانفراده بالتدبير، وهذه من أنواع التدبير والشئون التي يصرفها بحسب حكمته وحمده.

وهو المعز لأهل طاعته وذا … عز حقيقي بلا بطلان

وهو المذل لمن يشاء بذلة الدا … رين ذل شقا وذل هوان

يعني أنه المعز لمن يشاء المذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران/ ٢٦]، والعز الحقيقي الذي هو

عز ظاهر وباطن إنما يكون بالقيام بطاعته واتباع رسله. والذل الحقيقي إنما يكون بعدم القيام بطاعة الله، فإنه وإن وجد مع أهل المعاصي عز ظاهر وأُبَّهَةٌ دنيوية فإن ذلك محشو بالذل والهوان. فقد يشعر به صاحبه، وقد تغلب عليه السكرة فلا يشعر بذلك، كما قال الحسن رحمه الله في أهل المعاصي: إنهم وإن طقطقت بهم البراذين، وهملجت بهم البغال، إن ذُلَّ المعاصي قد علاهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه. قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج/ ١٨]، فالعاصي له الذل والشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه/ ١٢٤]، وأما أهل العلم والإيمان فإن لهم العز والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يغترون بظاهر ما يعطاه المترفون في الدنيا، ولا يقع في نفوسهم من ذلك شيء، كما قال أهل العلم والإيمان لمن غبط قارون على ما أوتيه من زينة الدنيا، فقالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص/ ٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ﴾ [فاطر/ ١٠]، أي من أراد العزة فإنها كلها لله تعالى، فليطلبها بطاعة الله والعمل الصالح والكلم الطيب، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨].

هو مانع معطي فهذا فضله … والمنع عين العدل للمنان

يعطي برحمته ويمنع من يشا … ء بحكمة والله ذو سلطان

يعني أنه تعالى المنفرد بالعطاء والمنع، فلا مانع لما أعطى،

ولا معطي لما منع، فإن أعطى فبمحض فضله وإحسانه، لا بسبب من العبد ولا بتقدم واسطة. وإن منع فبمحض عدله وحكمته. ومن أعظم عطائه عطاء الهدى والأمن والتوفيق للأعمال الصالحة، وليست بحول العبد وقوته، بل بتوفيق الله ومَنّه ولطفه، يضعهما في المحل القابل لها الذي تصلح به، ويمنعها من المحل الذي لا يليق بها ولا تصلح به ولا تزكو عليه، وليس منعه لعبده من التوفيق منعًا لحق للعبد حتى يكون ذلك ظلمًا، وإنما هو محض فضله يمنعه ممن ليس له بأهل، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۝﴾ [الأنعام/ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝﴾ [الأنفال/ ٢٣].

والعطاء أحب إلى الله من المنع، وقد فتح للعباد من أبواب رحمته وخزائن جوده وعطائه كل باب، فيسر لهم كل طريق يوصل إلى ذلك، وأمرهم بسلوكها، فمن سلكها حصل له من الجود والعطاء مالا يخطر بالبال ويدور في الخيال، ومن لم يسلكها بل سدَّ دون نفسه أبوابها، وسلك الطرق التي تفضي به إلى الحرمان، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

فصل

والنور من أسمائه أيضًا ومن … أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلامًا قد حكا … ه الدارمي عنه بلا نكران

ما عنده ليل يكون ولا نها … ر قلت تحت الفلك يوجد ذان

نور السموات العلى من نوره … والأرض كيف الشمس والقمران

من نور وجه الرب جل جلاله … وكذا حكاه الحافظ الطبراني

فبه استنار العرش والكرسي مع … سبع الطباق وسائر الأكوان

وكتابه نور كذلك شرعه … نور كذا المبعوث بالفرقان

وكذلك الإيمان في قلب الفتى … نور على نور مع القرآن

وحجابه نور فلو كشف الحجا … ب لأحرق السبحات للأكوان

وإذا أتى للفصل يشرق نوره … في الأرض يوم قيامة الأبدان

وكذاك دار الرب جنات العلى … نور تلألأ ليس ذا بطلان

والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ … ـف ماهما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ … ـسوس ومعقول هما شيئان

احذر تزل فتحت رجلك هوة … كم قد هوى فيها على الأزمان

من عابد بالجهل زلت رجله … فهوى إلى قعر الحضيض الداني

لاحت له آثار أنوار العبا … دة ظنها الأنوار للرحمن

فأتى بكل مصيبة وبلية … ما شئت من شطح ومن هذيان

وكذا الحلولي الذي هو خدنه … من هاهنا حقًا هما أخوان

ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ … ـحجب الكثيفة ما هما سيان

ذا في كثافة طبعه وظلامه ... وبظلمة التعطيل هذا الثاني

والنور محجوب فلا هذا ولا ... هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على النور في هذا الفصل، لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة الفرقان فيه. وحاصل ما ذكره أن من أسمائه وأوصافه «النور» الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان، وكتابه نور ورسوله نور، والإيمان الذي في قلوب المؤمنين نور، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء/ ١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة/ ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور/ ٣٥]، أي نور الإيمان على نور القرآن على نور الفطرة، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر/ ٦٩]. وحجابه تعالى نور كما قال النبي ﷺ: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»** رواه مسلم(١). وروى الطبراني عن

(١) عن أبي موسى الأشعري.

عبدالله بن مسعود أنه قال: **«إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه»** الحديث. ولهذا قال المؤلف: قلت تحت الفلك يوجد ذان، أي الليل والنهار لا يوجدان إلا تحت الفلك الأسفل، لأنهما تبع لوجود الشمس وعدمها، وأما الملأ الأعلى والعالم العلوي ففي غاية السعة والنور.

وقوله: وكذاك دار الرب نور تلألأ، يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«ألا مشمر للجنة، فإنها لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، ونهر مطرد، وقصر مشيد، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، وفاكهة وخضرة وحبرة في أبد لا يزول. فقال القوم: نحن المشمرون لها، فقال: قولوا إن شاء الله، فقال القوم: إن شاء الله»**.

ثم ذكر المؤلف أن النور نوعان: نور وصف لله، وهو ما أطلقه على نفسه الكريمة في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وكما في قول النبي ﷺ: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون»**(١). وكما في قوله: **«لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**(٢). أي

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٦٢ مطبعة الحلبي.

(٢) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

لأحرق نوره وبهاؤه جميع المخلوقات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر/ ٦٩]، فهذا كله وصف لله تعالى. وكذلك كتابه تعالى نور، وكلامه صفة من صفاته.

أما النور المخلوق فهو نوعان: محسوس ومعقول، فالمحسوس الذي يدرك بالحواس ويرى عيانًا، فهو نور الحجاب ونور الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الأنوار التي تدخل في قوله ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام/ ١]. وأما النور الذي لا يدرك بالحس وإنما هو معقول، فهو نور الإيمان وشواهد الإيقان ونور المعرفة وحقائق الذكر ونور المحبة، فهذا نور معقول يشرح الصدر، ويجعل صاحبه في جنة معجلة لا يشبهها شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور/ ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام/ ١٢٥]، وكما كان النبي ﷺ يدعو في قيام الليل وفي الخروج إلى المسجد: **«اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، وتحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا، وزدني نورًا»**[1]، فهذا النور يقوى بحسب المعرفة وقوة المحبة، وكثرة الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق العبادات.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

ثم حذر المصنف رحمه الله في هذا المقام من اغترار من اغتر من جهلة المتصوفة والمتعبدة، حين عملوا على الحقائق فاجتهدوا في التعبد، فاستنارت بذلك قلوبهم، وعظم الوارد إليها، فظنوا بجهلهم وظلمهم أن تلك أنوار الصفات للذات المقدسة، وتوهموا أن ما يجدونه في أذهانهم موجود في الخارج والعيان، فباحوا بالشطح والطامات الكبرى، وادعوا أنهم يشاهدون الله حقًا، بل ربما وصلوا إلى درجة الحلول، فظنوا أن الله حالٌّ فيهم ومتصل بهم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. فالمتعبد إن لم يصحبه العلم والتمييز بين النور المخلوق وغيره طرق باب الحلول ولابد، وسبب ذلك قوة الوارد وضعف المورد وقلة العلم، فلهذا حذر المؤلف، فقال: احذر تزل فتحت رجلك هوة، أي حفرة تهوي بصاحبها إلى أسفل سافلين، كم قد هوى فيها على الأزمان، من عابد بالجهل زلت رجله، فهوى إلى قعر الحضيض الداني.

ثم ذكر السبب في قوله: لاحت له آثار أنوار العبادة، ظنها الأنوار للرحمن، أي ظنها نور الذات من جهله، فأتى بكل مصيبة وبلية، ما شئت من شطح ومن هذيان. والشطح كلام الغلو الذي يجعل لنفسه منزلة ليست له، بل ربما جعل لها من خصائص الإلهية شيئًا. والهذيان الكلام الذي لا حاصل له، بل هو عبث وباطل.

ثم قال: وكذا الحلولي الذي هو خدنه أي نظيره ومشبهه من هذا الوجه، فإن المتعبد تعرض له هذه الأمور في بعض الأوقات، وإن كان اعتقاده اللازم مخالفًا لذلك. وأما الحلولي فهو الذي

يعتقد حلول الإله ـ تعالى الله عن قوله ـ في بعض الأشخاص، كدعوى النصارى حلوله في عيسى بن مريم، ودعوى غلاة الرافضة حلوله في بعض أهل البيت، ودعوى كثير من المتصوفة حلوله العام أو الخاص، فكل هذا انحراف عن الصراط المستقيم الذي دلت عليه الكتب، ودعت إليه الرسل، وكفر وزندقة. فهؤلاء حصل لهم الانحراف من جهة الغلو.

ويقابل الرجلين أي جهلة المتعبدة والحلولية رجلان آخران:

أحدهما: المعطل لصفات الله تعالى، الذي ينفر القلوب عن معرفة ربها ومحبته والإنابة إليه، فإن إثبات الصفات شرط لذلك، وهذا يسعى في تعطيلها وتحريفها ونفي حقائقها الثابتة، فهذا محجوب عن الله بتعطيله.

والثاني: صاحب الحجب الكثيفة، وهو الذي قد أعرض عن معرفة ربه، وغفل عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد أقبل على شهوات نفسه ولذة جسمه، فقلبه مغمور بالشهوات، مصدود عن حقائق العبادات، فهذا بظلمة طبعه وشهوته ممنوع من نور القلب والأنس بربه والابتهاج بمحبته، لا يصل إليه النور حتى يفرغ قلبه من الشواغل الصادة عن مباشرة حقائق الإيمان إليه، ثم يجعل محبة الله هي غايته ومقصوده، وإرادة وجهه هي منتهى طلبه، ويجاهد نفسه على تخلقها بهذا الخلق الكامل، ويستعين بربه ويلتجىء إليه، فما خاب عبد أمّل جوده وإحسانه، وتسبب لذلك بما يصل إليه قدرته.

فصل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الصـ ... ـفتان للأفعال تابعتان

وهما صفات الذات أيضًا إذ هما ... بالذات لا بالغير قائمتان

ولذاك قد غلط المقسم حين ظـ ... ـن صفاته نوعين مختلفان

إن لم يرد هذا ولكن قد أرا ... د قيامها بالفعل ذي الإمكان

والفعل والمفعول شيء واحد ... عند المقسم ماهما شيئان

فلذاك وصف الفعل ليس لديه ... إلا نسبة عدمية ببيان

فجميع أسماء الفعال لديه ليـ ... ـست قط ثابتة ذوات معاني

موجودة لكن أمور كلها ... نسب ترى عدمية الوجدان

هذا هو التعطيل للأفعال كالتـ ... ـعطيل للأوصاف بالميزان

فالحق أن الوصف ليس بمورد التـ ... ـقسيم هذا مقتضى البرهان

بل مورد التقسيم ما قد قام با ... لذات التي للواحد الرحمن

فهما إذًا نوعان أوصاف وأفـ ... ـعال فهذي قسمة التبيان

فالوصف بالأفعال يستدعي قيا ... م الفعل بالموصوف بالبرهان

كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما ... إن بين ذينك قط من فرقان

ومن العجائب أنهم ردوا على ... من أثبت الأسماء دون معاني

قامت بمن هي وصفه هذا محا ... ل غير معقول لذي الأذهان

وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل قا ... لوا لم تقم بالواحد الديان

فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ... ردوا به أقوالهم بوزان

إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ... ل خصومكم أيضًا فذو إمكان

والوصف بالتقديم والتأخير كو ... ني وديني هما نوعان

وكلاهما أمر حقيقي ونسبي ... ولا يخفى المثال على أولي الأذهان

والله قدر ذاك أجمعه بإحكا ... م وإتقان من الرحمن

أصل ما ذكر المصنف في تفسير المقدم والمؤخر أنه المقدم لمن يشاء من خلقه المؤخر له، والتقديم والتأخير نوعان: كوني قدري وديني شرعي، الأول متعلق بقدرته وحكمته. والثاني برحمته وقدرته وحكمته. فالأول لا يدل على رضاه ومحبته. والثاني يدل على ذلك. وحاصل الأول أنه المقدم لبعض المخلوقات على بعض في الخلق والرزق والتدبير، المؤخر لها في ذلك. وحاصل الثاني أنه المقدم بعض عباده على بعض في العلم والإيمان والفضائل الدينية وثواب ذلك، وكل من التقديم والتأخير حقيقي ونسبي، فالحقيقي أن يكون المخلوق مقدمًا مطلقًا أو مؤخرًا مطلقًا كونًا أو دينًا. والنسبي أن يكون ذلك بالنسبة إلى ما دونه أو إلى ما فوقه.

وقول المؤلف: ولا يخفى المثال على أولي الأذهان.

أما التقديم والتأخير النسبي فظاهر في الكوني والديني، كتقديم الأب على الولد، وتقديم بعض القرون على بعض، وتأخرها عما قبلها، وكتقديم موسى في الفضل على غيره من الخلق سوى محمد وإبراهيم وتأخره عنهما، وكتقديم من فضل غيره بصفة دينية على المفضول وتأخره عن الفاضل.

وأما التقديم والتأخير الحقيقي الديني فظاهر، فإنه على الإطلاق محمد ﷺ مقدم بالفضل على سائر الخلق، وإبليس على الإطلاق مؤخر على سائر الخلق، فإنه شر الخليقة قطعًا.

وأما التقديم والتأخير الكوني الحقيقي فهذا لا يدري مثاله إلا الله تعالى، لأنا لا نعلم ما أول ما خلق الله مطلقًا، ولا ندري آخر ما يخلق الله تعالى، بل لا سبيل لأحد من الخلق إلى علم ذلك، لأن الله لم يزل ولا يزال يفعل، لا مبتدأ لذلك ولا منتهى، فلا يحيط أحد من الخلق بشيء من ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أن المقدم والمؤخر من صفات الأفعال، وذكر الفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية، وأنها كلها تشترك بقيامها بالله تعالى، لا فرق في ذلك بين الصفات الذاتية ـ كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحوها ـ وبين الصفات الفعلية ـ كالاستواء والنزول والكلام والخلق وأنواع التدبير ـ، فكلها قائمة بالله تعالى، لاستحالة وجود الفعل من غير أن يتصف به الفاعل، هذا محال عقلاً ونقلاً ولغة، فكيف يضيف تعالى إلى نفسه فعلاً وهو قائم بغيره، هذا من أبطل الباطل، ولكن الفرق بين

الصفات الذاتية والفعلية من جهة أن الصفات الذاتية لا ينفك عنها بوقت ولا حال من الأحوال، كالعلم الذي لا يمكن أن يفارقه بحال، وكالقدرة والغنى الذي هو من لوازم ذاته، وكالعلو على المخلوقات ونحو ذلك.

وأما الصفات الفعلية فضابطها هي كل صفة تعلقت بقدرته ومشيئته، التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ما تقتضيه الحكمة الربانية، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية أي المتعلقة بإرادته واختياره تعالى، وذلك كالكلام، فإنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وكيف شاء، لايخلو وقت من الأوقات السابقة والأوقات اللاحقة التي لا منتهى لها ولا غاية إلا وهو موصوف بأنه متكلم بما يشاء، بكلماته الدينية وكلماته القدرية، بل لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد، لنفدت ولم تنفد كلمات الله، إذ هي غير مخلوقة ولا منتهية. وكذلك الخلق والتدبير والإحسان لم يزل تعالى بذلك موصوفًا وبالإحسان معروفًا، ولا يزال كذلك، ويدل على ذلك كل ما ورد في الكتاب والسنة من أنه قال كذا أو يقول كذا أو فعل كذا أو يفعل كذا مما لا يحاط بذكره لكثرته وانتشاره، ويدل على ذلك عقلاً أنه قد تقرر أنه تعالى كامل القدرة نافذ المشيئة لم يزل ولا يزال كذلك، ومن كان كامل القدرة تام الارادة فكيف يخلو وقت من الأوقات أن يكون معطلاً عن فعله وكلامه المترتب على ذلك، وقد تقرر أيضًا أنه الكامل

من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومن المعلوم أن الكمال إنما يكون باتصافه كل وقت أنه يقول ويفعل ما يشاء، فإنا لو فرضنا أن يكون معطلاً في وقت من الأوقات عن أفعاله لكان ذلك نقصًا، يتعالى عنه الرب العظيم الكامل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

فهذا التقسيم بين صفات الذات وصفات الأفعال هو الحق الذي تدل عليه الأدلة والبراهين، فليس الوصف مورد التقسيم، فإنها كلها قائمة بالله قد اتصف بها، وإنما مورد التقسيم ما قد قام بذات الله من الصفات اللازمة التي لا ينفك عنها أبدًا، والصفات المتعلقة بقدرته ومشيئته وهي الصفات الفعلية.

ثم أنكر المصنف على من قسمها غير هذا التقسيم، ممن ينتسب إلى الأشعري وغيره من أهل الكلام، أن لم يرد ما ذكره من هذا التقسيم، بل أرادوا أن صفات الأفعال لم تقم بالله ولم يتصف بها، وزعموا أن ذلك يقتضي حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا اللفظ كل صفة فعلية، فأنكروا استواءه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وبنوا على هذا أن الكلام عبارة عن المعنى النفسي القديم الذي لا يعقل، ونفوا أن يكون متكلمًا في كل وقت بما شاء وإذا شاء، وهذا التعطيل لأفعال الله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين.

ولهذا تعجب المصنف من الأشعرية الذين أثبتوا الصفات

الذاتية، وأنكروا غاية الإنكار على الجهمية الذين أثبتوا الأسماء دون المعاني والصفات، وحقيق بهم أن ينكروا عليهم، فإن إثبات الأسماء دون المعاني باطل عقلاً ونقلاً، ولكن الأشعرية نقضوا أصلهم الذي ردوا به على الجهمية في صفات الأفعال، وعطلوا الأفعال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فتناقضوا في هذا الأصل، فاستطالت عليهم الجهمية بما سلموه لهم من الأصل الذي نفوا به الأفعال لله، وقالوا: الفعل هو المفعول، فحرفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزلوها على هذا الأصل الذي أصلوه، وهو أن الفعل هو المفعول، وهذا باطل في الشرع، لمنافاته له، فاسد في العقل، لأنه محال أن يوجد مفعول بدون فعل متصف به الفاعل.

ولهذا ألزمهم المؤلف أنه إن كان قولكم هذا ممكنًا على الفرض والتقدير، فكذلك قول خصومكم الجهمية في أصلهم الذي ردوا به صفات الله يكون ممكنًا، وإن كان قول خصومكم باطلاً، فقولكم أيضًا باطل، إذ لا فرق بينهما بوجه من الوجوه.

وقول المؤلف في حكايته لقول هذه الطائفة: فلذاك أي لأجل أن الفعل والمفعول شيء واحد عندهم، ليس وصف الفعل عندهم إلا نسبة عدمية الوجدان، أي تنسب إليه باللفظ وهي مفقودة فيه، وهكذا سائر صفات الأفعال، وهل أعظم من هذا التعطيل وأبطل من قول يلزم منه تعطيل الأفعال عن فاعل لها، وتعطيل الكلام عن المتكلم فيه، فالوصف بالفعل يستدعي قيامه بالموصوف قطعًا.

والذي أوجب لهذه الطائفة النافية لصفات أفعاله أنهم ظنوا أن إثباتها يقتضي الحدوث لها، فإذا كانت حادثة كان من قامت به حادثًا أيضًا، وهذا غير لازم لإثباتها، فإنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بالقدرة الكاملة على الأقوال والأفعال، ومشيئته أيضًا نافذة لا مانع لها بوجه من الوجوه، وحدوث أفعاله وأقواله شيئًا فشيئًا لا محذور فيه، بل هو الكمال كما تقدم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه[١]: وأما قول القائل لو قامت به الأفعال لكان محلاً للحوادث، والحادث إن أوجد له كمالاً فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن لم يوجب له كمالاً لم يجز وصفه به.

فيقال أولاً: هذا معارض بنظيره من الحوادث التي يفعلها، فإن كليهما حادث بقدرته ومشيئته، وإنما يفترقان في المحل، وهذا التقسيم وارد على الجهتين.

وإن قيل في الفرق: المفعول لا يتصف به، بخلاف الفعل القائم به.

قيل في الجواب: بل هم يصفونه بالصفات الفعلية، ويقسمون الصفات إلى فعلية ونفسية، فيصفونه بكونه خالقًا رازقًا بعد أن لم يكن كذلك، وهذا التقسيم وارد عليهم، وقد أورده عليهم الفلاسفة في مسألة حدوث العالم، فزعموا أن صفات الأفعال ليست صفات

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/١٠٥ ـ ١٠٨.

كمال ولا نقص.

فيقال لهم كما قالوه لهؤلاء في الأفعال التي تقوم به أنها ليست كمالاً ولا نقصًا.

فإن قيل لابد أن يتصف إما بنقص أو كمال، قيل: ولابد أن يتصف من الصفات الفعلية إما بنقص وإما بكمال، فإن جاز ادعاء خلو أحدهما عن القسمين أمكن الدعوى في الآخر مثله، وإلا فالجواب مشترك.

وأما المتفلسفة فيقال لهم: القديم لا تحله الحوادث، ولا يزال محلاً للحوادث عندكم، فليس القدم مانعًا من ذلك عندكم، بل عندكم هذا هو الكمال الممكن الذي لا يمكن غيره، وإنما نفوه عن واجب الوجود لظنهم عدم اتصافه به.

وقد تقدم التنبيه على إبطال قولهم في ذلك، لاسيما وما قامت به الحوادث المتعاقبة يمتنع وجوده عن علة تامة أزلية موجبة لمعلولها، فإن العلة التامة الموجبة يمتنع أن يتأخر عنها معلولها أو شيء من معلولها، ومتى تأخر عنها شيء من معلولها كانت علة له بالقوة لا بالفعل، واحتاج مصيرها علة بالفعل أو بسبب آخر، فإن كان المخرج لها من القوة إلى الفعل هو نفسه صار فيه ماهو بالقوة هو المخرج له إلى الفعل، وذلك يستلزم أن يكون قابلاً وفاعلاً، وهم يمنعون ذلك لامتناع الصفات التي يسمونها التركيب.

وإن كان المخرج له غيره كان ذلك ممتنعًا بالضرورة والاتفاق،

لأن ذلك ينافي وجوب الوجود، ولأنه يتضمن الدور المعيّ والتسلسل في المؤثرات، وإن كان هو الذي صار فاعلاً للمعين بعد أن لم يكن امتنع أن يكون علة تامة أزلية، فقدم شيء من العالم مستلزم كونه علة تامة في الأزل، وذلك يستلزم أن لا يحدث عنه شيء بوسط وبغير وسط، وهذا مخالف للمشهود.

ويقال أيضًا ثانيًا في إبطال قول من جعل حدوث الحوادث ممتنعا: هذا مبني على تجدد هذه الأمور بتجدد الإضافات والأحوال والأعدام، فإن الناس متفقون في تجدد هذه الأمور، وفرق الآمدي بينهما من جهة اللفظ، فقال: هذه حوادث وهذه متجددات، والفروق اللفظية لا تؤثر في الحقائق العلمية.

فيقال: تجدد هذه التجددات إن أوجب له كمالاً فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن أوجب له نقصًا لم يجز وصفه به.

ويقال ثالثًا: الكمال الذي يجب اتصافه به هو الممكن الوجود، وأما الممتنع فليس من الكمال الذي يتصف به موجود. والحوادث المتعلقة بقدرته ومشيئته يمتنع وجودها جميعًا في الأزل، فلا يكون انتفاؤها في الأزل نقصًا، لأن انتفاء الممتنع ليس بنقص.

ويقال رابعًا: إذا قدر ذات تفعل شيئًا بعد شيء وهي قادرة على الفعل بنفسها، وذات لا يمكنها أن تفعل بنفسها شيئًا، بل هي كالجماد الذي لا يمكنه بحال أن يتحرك، كانت الأولى أكمل من الثانية، فعدم هذه الأفعال نقص بالضرورة، أما وجودها بحسب

الإمكان فهو الكمال.

ويقال خامسًا: لانسلم أن عدم هذه مطلقًا نقص ولا كمال، ولا أن وجودها مطلقًا نقص ولا كمال، بل وجودها في الوقت الذي اقتضته مشيئته وقدرته وحكمته وجودها فيه هو الكمال، ووجودها بدون ذلك نقص، وعدمها مع اقتضاء الحكمة عدمها كمال، ووجودها حيث اقتضت الحكمة وجودها هو الكمال.

وإذا كان الشيء الواحد يكون وجوده تارة كمالاً وتارة نقصًا، وكذلك عدمه، بطل التقسيم المطلق، وهذا كما أن الشيء يكون رحمة بالخلق إذا احتاجوا إليه كالمطر، ويكون عذابًا إذا ضرهم، فيكون إنزاله عند حاجتهم رحمة وإحسانًا من المحسن الرحيم، متصف بالكمال، ولا يكون ترك انزاله حيث يضرهم نقصًا، بل هو أيضًا رحمة وإحسان، فهو محسن بالوجود حيث كان رحمة، وبالعدم حيث كان العدم رحمة. انتهى كلامه رحمه الله.

وقد برهن فيه بالدليل العقلي ما به يتبين الحق المبين، فجزاه الله خيرًا وأحسن إليه الجزاء. والمقصود أنه تبارك وتعالى هو المقدم المؤخر قدرًا وشرعًا تقديمًا وتأخيرًا تابعًا لحكمته وحمده تعالى.

فصل

اعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب، ومالم يذكره منها فإنه ذكر نظيره أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر «المتين» وهو في معنى

القوي القدير، ولم يذكر «الأعلى» وهو في معنى العلو، ولم يذكر «الرحمن الرحيم الكريم الرؤوف» وهي في معنى البر الجواد الوهاب، ولم يذكر «الرب والله والملك المالك».

وقد ذكر في «البدائع» أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى، فقال[1]: «الرب» هو القادر الخالق البارىء المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسمآء الحسنى.

وأما «الملك» فهو الآمر الناهي المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما «الإلّه» فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فتدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإلّه، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه

---

(١) جـ٢ ص٢٤٩.

إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، فقد شملت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى. انتهى.

فصل

هذا ومن أسمائه ماليس يفـ ... ـرد بل يقال إذا أتى بقران

وهي التي تدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان

إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب ... العرش عن عيب وعن نقصان

كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافع وكماله الأمران

ونظير هذا القابض المقرون باسم ... الباسط اللفظان مقترنان

كذا المعز مع المذل وخافض ... مع رافع لفظان مزدوجان

وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوف كما قد قال ذو العرفان

ما جاء في القرآن غير مقيد ... بالمجرمين وجا بذو نوعان

قال المصنف في «بدائع الفوائد»[1]: أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا أو مقترنًا بغيره، فتقول: ياعزيز ياحكيم ياغفور يارحيم، وأن يفرد

(1) جـ1 ص167.

كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به، فيسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها مالا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، العفو المنتقم، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يثني عليه بمجرد المنع والانتقام والاضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع، أو أخبرت بذلك، لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابله. هذا كلامه رحمه الله، وهو شرح لهذه الأبيات التي ذكرها هنا.

وقوله: ولم تطلق عليه إلا مقترنة، وهنا قال: وحديث إفراد اسم منتقم فموقوف، كما قاله أهل المعرفة، فإن الثابت في الصحيحين[1]: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**». ولم يذكر عددها، وإنما ذكرت في رواية الترمذي مرفوعة

(1) من حديث أبي هريرة.

وموقوفة، والموقوف أصح، فإذا كان موقوفًا لم ينقض هذه القاعده. وأما مجيء المنتقم في القرآن فإنه لم يطلق عليه إطلاقًا، وإنما قيده الله بالانتقام من المجرمين في قوله ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة/ ٢٢].

وجاء في القرآن بلفظ «ذو» نوعان يحتمل أنه في موضعين، ويحتمل أنه نوعان أي نوع مقيد بالمجرمين، ومرة لم يقيد بذلك، كما في قوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران/ ٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة/ ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف/ ١٣٦]، وقال: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم/ ٤٧].

فصل

ودلالة الأسماء أنواع ثلا ... ث كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضمنًا ... وكذا التزامًا واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهي أن ... الاسم يفهم منه مفهومان
ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشتق منه الاسم بالميزان
لكن دلالته على إحداهما ... بتضمن فافهمه فهم بيان
وكذا دلالته على الصفة التي ... ما اشتق منها فالتزام دان
وإذا أردت لذا مثالاً بينًا ... فمثال ذلك لفظة الرحمن

ذات الإله ورحمة مدلولها ... فهما لهذا اللفظ مدلولان
إحداهما بعض لذا الموضوع ... فهي تضمن ذا واضح التبيان
لكن وصف الحي لازم ذلك الـ ... ـمعنى لزوم العلم للرحمن
فلذا دلالته عليه بالتزام ... بين والحق ذو تبيان

هذه القاعدة التي ذكرها المصنف ليست خاصة بدلالة الأسماء الحسنى على معانيها، بل عامة في جميع الألفاظ بالنسبة لمدلولاتها، وضابط ذلك أن الدلالة نوعان لفظية وعقلية.

فاللفظية إما أن تعطي الألفاظ كل ما تناولته من المعاني والأوصاف، فتسمى دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص. وإما أن تعطي الألفاظ بعض ما تناولته من المعاني، فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى بعض اللفظ وداخل في ضمنه.

وأما الدلالة العقلية فهي خاصية العقل والفكر، لعدم دلالة اللفظ بمجرده عليها وإنما ينظر العقل في ذلك المعنى الذي دل عليه اللفظ، وما يلزمه من المعاني الخارجية، وما يشترط له من الشروط التي لا يتم بدونها، فهذه قاعدة أصولية تجري في جميع الألفاظ، وتعتبر في كل موضع.

وذكر المصنف هنا منها ما يتعلق بالأسماء الحسنى، فأخبر أن الاسم من أسمائه الكريمة إن دل على الذات الإلهية والوصف الذي اشتق منها فدلالته دلالة مطابقة، وإن دل على أحد الأمرين

إما الذات وحدها أو الصفة وحدها فدلالته دلالة تضمن، وإن دل على صفة أخرى لازمة لما دل عليه فدلالة التزام.

ومثال ذلك من الأسماء الحسنى لفظة «الرحمن»، فإن دلالته على ذات الإله وعلى رحمته الواسعة دلالة مطابقة، ودلالته على الذات وحدها أو على الرحمة وحدها دلالة تضمن، ودلالته على الحياة الكاملة وعلمه المحيط دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وعلمه بحال المرحوم وما يوصل إليه من الرحمة. وكذلك ما تقدم من استلزام الملك جميع صفات الملك الكامل الذي لا يتم بدونها، واستلزام الرب جميع صفات الربوبية، واستلزام الإله جميع صفات الإلهية، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد.

وحيث ذكر المصنف هذه القاعدة المتعلقة بأسمائه الحسنى، فلتضف إلى ذلك عدة قواعد تتعلق بالأسماء والصفات تتميمًا للفائدة، ذكرها في «بدائع الفوائد». قال رحمه الله[1]: فائدة جليلة: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: مايرجع إلى نفس الذات، كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق والرازق.

(١) جـ١ ص١٥٩.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض. كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لايختص بصفة معينة، بل دال على معاني لا على معنى مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفًا، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إلى الله، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي[1]: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**». ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام**»[2]. فهذا سؤال له وتوسل

(١) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. وهو حديث صحيح.

إليه بحمده، وأنه لا إلَه إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

فلنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قلت: وقد تقدم ذلك في الصمد.

ثم قال: السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغني صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما. وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن يكون متضمنة لثبوت، كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلَهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يناقض كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق/ ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا

فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس/ ٦١] متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص/ ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص/ ٤] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام/ ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإن هذا يخبر به عنه، ولا يدخل في باب أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والصانع والفاعل، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الاطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه

الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف فيها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، وفائدتها العلمية المحضة، بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها مالم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه اسم السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو قد سمع الله، فقدرنا فنعم القادرون، هذا إن كان

الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به، نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حَيِيَ.

التاسع: أن أفعال الرب تعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم. فالرب تعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. والرب تعالى لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضي بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، ولهذا كله حسن، لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً ولا سدى، وكما أن كل موجود سواه بإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى

جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضياتها ومرتبطة بها. فتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتًا، لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً. وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق الرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها، لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق في ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله. فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسماء الله تبارك وتعالى التي من أحصاها دخل الجنة، هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومداركها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف/ ١٨٠]، وهو مرتبتان: إحداهما دعاء ثناء وعبادة، والثانية: دعاء طلب ومسألة، ولا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم وجدها مطابقة لهذا. إلى أن قال:

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والعزيز والملك ونحوها:

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال.

الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشيء.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول الأكثرين، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها

في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب أو بالعبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به.

الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد ما يليق به، وهذا كاسم «السميع» الذي يلزمه إدراك المسموعات، و«البصير» الذي يلزمه رؤية المبصرات، و«العليم» و«القدير» وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها كما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

ومالزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم من علوه من احتياجه إلى ماهو عال

عليه وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أربعة أمور: أمران لفظيان، وأمران معنويان، فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي أن يمتنع الاشتقاق لغيره. والمعنويان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي أن لا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرًا عنه.

وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات. فلنذكر من ذلك مثالاً واحدًا وهي صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كان هو المتكلم دون من لم يقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه

دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصل أهل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بحد. إلى آخر ما ذكره مما تقدم مضمونه، ومما سيأتي له تتمته في الفصل بعده.

فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين، وذكر انقسام الملحدين

والمقصود من هذا الفصل حفظ أسماء الله وأوصافه عن أن تحرف أو تغير، أو ينقص منها شيء، أو يبخس من كمال شيء من أوصافه، أو تعطل أو تمثل، ولهذا ذكر الأصل الجامع في هذا بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعاني

يعني أن أسماءه كلها أوصاف مدح وحمد وثناء، وهي مشتقة من معانيها ثابتة له حقائقها، ولذلك كانت حسنى، فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولو كانت دالة على نقص أو بعضها دالاً على ذلك لما كانت كلها حسنى، ولهذا إذا كان الوصف

محتملاً للمدح ولغيره لم يدخل بمطلقه في أوصاف الله وأسمائه، كالمريد والصانع والفاعل ونحو ذلك.

قال المصنف في «البدائع»[1]:

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصًا. وإن كانت التسمية التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالاً ونقصًا باعتبارين، والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، فصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيرها ليس تفسيرًا بمرادف محض، وهو على سبيل التقريب والتفهيم. وإذا عرفت هذا فله تعالى من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. انتهى.

إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل ... بالإشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذًا ثلاث طوائف ... فعليهم غضب من الرحمن

بيّن أن أسماءه تعالى كلها أوصاف مدح، حذر مما ينافي ذلك

---

(١) جـ١ ص١٦٧.

وهو الإلحاد، وأخبر أنه كفر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف/ ١٨٠]، وإنما كان الإلحاد فيها كفرًا لأنه رد لما أخبر الله به ورسوله من صفات الله المقدسة ونعوته الكاملة، بالميل فيها بالإشراك فيها، وجعلها له ولغيره، كما يفعله المشركون، أو نفي معانيها وحقائقها كما يفعله المعطلة، أو إنكارها كاملة كما يفعله الزنادقة.

ولهذا أخبر المصنف أن الملحدين منقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهم حل عليهم غضب الله وعذابه.

قال في «بدائع الفوائد»[1]:

العشرون: وهو الجامع لما تقدم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لايقع فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف/ ١٨٠]، والإلحاد فيها هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة (ل ح د)، فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ماليس منه، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى:

(١) جـ١ ص١٦٩.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف/ ٢٧]، أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجىء إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تبارك وتعالى أنواع: أن يسمى الأصنام بها لتسميتهم اللات من الإلَهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلَهًا، وهذا الإلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، ولهذا قال هنا:

المشركون لأنهم سموا بها ... أوثانهم قالوا إلَه ثاني

هم شبهوا المخلوق بالخلاق عكـ ... ـس مشبه الخلاق بالإنسان

أي يدخل في الإلحاد في أسماء الله من جهة التشريك في التسمية المشركون الذين شبهوا المخلوقات الناقصات من جميع الوجوه بالخالق الرب العظيم الكامل من كل وجه، فسموها آلهة ونحلوا لها من أسماء الله ما نحلوا، كما تقدم. ويدخل فيه أيضًا المشبهة من غلاة الرافضة واليهود الذين شبهوا الخالق تعالى بالمخلوق، فحملوا ما جاءت به نصوص الأنبياء من أوصاف كماله على ما يعقلونه من صفات المخلوقين، وأعطوا صفاته خصائص صفات المخلوقين، وهذا من أعظم الإلحاد في أسمائه وآياته.

وكذاك أهل الاتحاد فإنهم ... إخوانهم من أقرب الإخوان

أعطوا الوجود جميعه أسماءه ... إذ كان عين الله ذا السلطان

والمشركون أقل شركًا منهم ... هم خصصوا ذا الاسم بالأوثان

ولذاك كانوا أهل شرك عندهم ... لو عمموا ما كان من كفران

أي وكذلك يدخل في هؤلاء الملحدين الذين شركوا بين المخلوقين والخالق ببعض الصفات أهل الاتحاد، الذين عم شرهم وطغى كفرهم وتلطفوا غاية التلطف إلى إضلال الناس بكفرياتهم الشنيعة، التي لو أظهروها على صورتها وحقيقتها لرأى الناس منها إنكار رب العالمين جملة، وإنكار الرسل والكتب جملة، وإنكار المعاد والبعث بعد الموت، ولذلك اتفق العارفون بأقوالهم أنهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين.

ومن أكبر العجب اغترار كثير ممن ينتسب إلى الاسلام بهذا المذهب الخبيث، وتعظيمهم لأهل هذا المذهب حتى أدخلوه في كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحقيقة مذهبهم أن جميع العالم العلوي والسفلي شيء واحد متحد بعضه ببعض، وإن تباينت أجزاؤه وتفرقت أحواله، فما ثَمَّ خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا مربوب، ولا واجب الوجود وممكن الوجود، بل الخالق نفس المخلوق، والرب نفس المربوب، والعبد نفس المعبود، وجعلوا لله كل صفة ممدوحة ومذمومة، إذ كان هو الممدوح المذموم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، فإنهم أعظم الملحدين في أسماء الله وصفاته. والمشركون أقل شركًا منهم، لأنهم خصصوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء الملاحدة أعطوا جميع الموجودات

أسماء الله وأوصافه، إذ كان أصل مذهبهم أن الله هو عين هذه الموجودات، قالوا: وإنما كفرنا المشركين لأنهم خصصوا الإلٓهية ببعض المخلوقات، ولو عمموا فجعلوا كل موجود إلٓهًا ما أشركوا ولا كفروا.

فتبًا لهم ما أضلَّهم وأعماهم، حيث أنكروا وجود واجب الوجود الرب العظيم الملك الكبير، واشتبه عليهم بوجود هذه المخلوقات الممكنات التي ليس لها من أنفسها إلا العدم عدم الوجود وعدم الكمال، وهذا القول يكفي في رده مجرد تصوره، فإن فساده معلوم بضرورة العقل والشرع. والمقصود أن هؤلاء الملاحدة من الذين ألحدوا في أسماء الله، وجعلوها لسائر المخلوقات، كما خصها المشركون ببعض المخلوقات.

والملحد الثاني فذو التعطيل إذ ... ينفي حقائقها بلا برهان

ما ثم غير الاسم أوّله بما ... ينفي الحقيقة نفي ذي بطلان

هذا القسم الثاني من الملحدين في أسماء الله، وهم المعطلة لأسماء الله، النافين لحقائقها ومعانيها بلا برهان، ولا حجة إلا أهوية وآراء فاسدة لا تسمن ولا تغني من جوع، فلا يثبتون لله إلا أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، وإن أثبتوا لها معنى أولوها بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله لم يريداها، بل أرادا غيرها، ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشعرية

والماتريدية في الصفات الفعلية الخبرية، فإن مسلكهم فيها كمسلك الجهمية في الصفات الذاتية.

قال في البدائع[1]: ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ محدودة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً ولغة وشرعًا وفطرة، وهو مقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فيهم العالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر. انتهى. وقوله:

فالقصد دفع النص عن معنى الـ   ـحقيقة فاجتهد فيه بلفظ بيان

عطل وحرف ثم أول وانفها   واقذف بتجسيم وبالكفران

للمثبتين حقائق الأسماء والـ   أوصاف بالأخبار والقرآن

فإذا هم احتجوا عليك فقل لهم   هذا مجاز وهو وضع ثاني

(1) جـ1 ص١٦٩.

فإذا غلبت عن المجاز فقل لهم   لا يستفاد حقيقة الإيقان

أنى وتلك أدلة لفظية   عزلت عن الإيقان منذ زمان

يعني أن القصد من هذا المعطل الملحد دفع نص الكتاب والسنة الوارد في صفات الله ونعوته، فهو مجتهد بدفعه غاية ما يمكنه بكل ما يقدر عليه، فيتوسلون إلى هذا المقصد الباطل بتعطيل المعاني الصحيحة وتحريفها، أي تعويجها إلى معاني باطلة، فينفي المعنى الحق ويثبت المعنى الباطل، ثم ما يكفيهم هذا حتى يقذفوا أهل الحق المثبتين حقائق أسماء الله وصفاته على ما جاءت به النصوص بالتجسيم والتكفير، لينفروا من قولهم ويقبحوه بما وضعوا لهم من الأسماء الباطلة، ويسمون أنفسهم أهل الحق ومقالتهم هي التنزيه قلبًا للحقائق، كما قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام/ ١١٢].

فإذا هم ناظروا أهل السنة والجماعة عرفوا أن نصوص الكتاب والسنة مع أهل السنة، فيوصي بعضهم بعضًا، فيقولون: إذا احتجوا عليكم فقولوا لهم: هذا مجاز، والمجاز هو ما وضع ثانيًا، وليس المراد به ما يفهم منه، فإذا تمكنوا من هذا صالوا به وجالوا، فإذا غلبوا عن المجاز وأتاهم من الحقائق مالا قبل لهم به، ولا يمكن دعوى المجاز به كما هو جلي في نصوص الأسماء والصفات، لجئوا إلى قاعدة لهم خبيثة باطلة، وهي أن النصوص أدلة لفظية لا تفيد الحق واليقين، وإنما تفيد غلبة الظن، وبزعمهم أن الذي يفيد اليقين هو آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة، فإذا أتت النصوص

مخالفة لما استقر في نفوسهم رأوا من اللازم صرفها عن المراد بها موافقة لما يعتقدونه.

وقد غلطوا في هذا أكبر الغلط وأفحشه، فإن نصوص الكتاب والسنة في أعلى رتب الحق واليقين، وهي أرفع أنواع الصدق، فإنها كلام الله الذي لا أصدق منه قيلاً ولا أحسن منه حديثًا، وكلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. ومع ذلك فقد أيد الله ورسوله ما أخبرا به من الحق بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، التي لا تبقي في قلب مريد الحق والهدى أدنى ريب.

وغاية ما يوجد عند المتكلمين من المعقولات والبراهين جزء يسير مما اشتمل عليه كتاب الله وسنة رسوله، بل لا يمكن أن يوجد في الكتاب والسنة مسألة واحدة مخالفة لما يعلمه العقلاء أهل البصائر النافذة. بل أدلة المعقول موافقة لأدلة المنقول، فكيف يقول القائل: إنها أدلة لفظية لا تفيد اليقين، سبحانك هذا بهتان عظيم، يلزم منه بطلان أخباره وأوامره ونواهيه والكفر برب العالمين رأسًا، فإنه لا يشاء متأول أن يتأول إذا فتحت لهم هذه القاعدة الشنعاء، والمقالة التي لم يسبق المتكلمين بها أحد من رسل الله ولا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

ثم إن للمتكلمين أصلاً آخر إليه يفزعون عند تزاحم النصوص عليهم، وبه يتحصنون عن أدلة الكتاب والسنة، ذكره بقوله.

فإذا تضافرت الأدلة كثرة ... وغلبت عن تقرير ذا ببيان

فعليك حينئذ بقانون وضعتـ ... ـاه لدفع أدلة القرآن

ولكل نص ليس يقبل أن يأ ... ول بالمجاز ولا بمعنى ثاني

قل عارض المنقول معقول وما ... الأمران عند العقل يتفقان

ما ثم إلا واحد من أربع ... متقابلات كلها بوزان

إعمال ذين أو عكسه أو تلغي الـ ... ـمعقول ما هذا بذي إمكان

العقل أصل النقل وهو أبوه إن ... تبطله يبطل أصله التحتاني

فتعين الإعمال للمعقول والـ ... إلغاء للمنقول بالقانون ذي البرهان

إعماله يفضي إلى إلغاءه ... فاهجره هجر الترك والنسيان

يعني أن المتكلمين يصولون بهذا القانون الباطل على دفع أدلة الكتاب والسنة، وحاصل تقريره: أنهم يقولون إذا تعارض العقل والنقل فلابد من واحد من أربعة أمور: إما أن يعملا كلاهما، أو يلغيا، أو يعمل النقل ويلغى العقل، أو يعمل العقل ويلغى النقل. وعندهم أن الأقسام الثلاثة الأول غير ممكنة، وأنه يتعين القسم الرابع، وهو إعمال المعقول وإلغاء المنقول، وذلك أن إعمالها مع التعارض غير ممكن، فإنهما لو أعملا والحالة هذه لم يكن تعارض، وإلغاؤهما أيضًا غير ممكن، لأنه يلزم منه إبطال العقل والنقل، وإعمال النقل مع إلغاء العقل غير ممكن على زعمهم، لأن إعمال النقل يقتضي إلغاءه، فإن النقل لم يعرف إلا بالعقل، فهو الطريق

لثبوته على زعمهم، فإذا قدحنا في الأصل الذي هو العقل لزم القدح فيما يتفرع عنه وهو النقل، فتعين حينئذا إعمال العقل وإلغاء النقل بهذا القانون الفاسد، ووجب أن توزن به نصوص الكتاب والسنة.

وهذا التقسيم الذي حصروه بهذه الأقسام والحكم الذي حكموا به باطلان عقلاً وشرعًا، وقد تصدى لإبطاله الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه «العقل والنقل»[1]، فقال لما ذكر تقسيمهم هذا: والمقصود هنا الكلام على قول القائل إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية إلى آخره. والكلام على هذه الجملة بني على بيان ما في مقدمتها من التلبيس، فإنها مبنية على مقدمات: أولها: ثبوت تعارضهما، والثانية: انحصار التقسيم فيما ذكره من الأقسام الأربعة، والثالثة: بطلان الأقسام الثلاثة. والمقدمات الثلاثة باطلة.

وبيان ذلك بتقديم أصل، وهو أن يقال: إذا قيل: تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين وإما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا، وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي

(1) جـ1 ص78 طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود.

هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال، بل كلما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلابد أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين. وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يدفع اليقين. وأما إن كانا جميعًا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًا أو عقليًا.

ثم أطال الكلام بما يشفي ويكفي، رحمه الله تعالى.

ولما كان كلام المؤلف عن المتكلمين بذكر هذا القانون يوهم نوع مبالغة دفع هذا الوهم بقوله:

والله لم نكذب عليهم إننا ... وهم لدى الرحمن مجتمعان

وهناك يجزى الملحدون ومن ... نفى الإلحاد يجزى ثم بالغفران

ولعله أخذه من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/ 180]، فالملحدون يجزون بالعقاب الوبيل، والمثبتون لله الأسماء والصفات النافين لإلحاد الملحدين يجزون هناك بالعفو والغفران والخلود في الجنة ونيل أعلى الكرامات.

فاصبر قليلاً إنما هي ساعة ... يا مثبت الأوصاف للرحمن

فلسوف تجني أجر صبرك حين ... يجني الغير وزر الإثم والعدوان

فالله سائلنا وسائلهم عن الـ ... إثبات والتعطيل بعد زمان

فأعدّ حينئذ جوابًا كافيًا ... عند السؤال يكون ذا تبيان

يُرَغِّب رحمه الله المثبت لصفات الله على صبره على ذلك، ولو كثر المخالفون ورأى منهم المعارضة والمعاكسة، فإن الصبر عاقبته حميدة، خصوصًا في المحن التي ستنقطع، وربما أعقبها في الدنيا السعادة والفلاح والعز والصلاح، فإن الدنيا كلها قليل، وعمر الإنسان منها أقل القليل، وأوقات الابتلاء والامتحان نزر يسير بالنسبة إلى عمره ووقته. فالله سائل العباد عما كانوا عليه في الدنيا، فمن كان جوابه أن يقول: قد قلت يا ربي ما قلته في كتابك وقاله رسولك محمد ﷺ، فهذا الجواب المنجي، ومن كان جوابه تقديم العقول الكاسدة والآراء الفاسدة على ما قاله الله وقاله رسوله لم يكن ذلك منجيًا له من العقاب، ولا موصلاً له إلى الثواب، فإن الله لا يسأل العباد إلا عما جاءت به المرسلون إقرارًا وعلمًا وعملاً.

هذا وثالثهم فنافيها ونا ... في ما تدل عليه بالبهتان

ذا جاحد الرحمن حقًا لم ... يقر بخالق أبدًا ولا رحمن

يعني أن الملحد الثالث هو النافي لأسماء الله ونافي ما تدل

عليه من صفات الكمال بالبهتان والقول الباطل، وهذا أعظم أنواع الإلحاد، فإنه متضمن لجحد الخالق وجحد ربوبيته وأوصافه المقدسة، وذلك كفرعون ونحوه، وكالفلاسفة الذين يشتمل قولهم على جحد رب العالمين.

هذا هو الإلحاد فاحذره ... لعل الله أن ينجيك من نيران

وتفوز بالزلفى لديه وجنة ... المأوى مع الغفران والرضوان

هذا أي جميع ما تقدم من الأقسام هو الإلحاد بيّنه المصنف لأجل أن يحذر منه، فإنه موجب لدخول النار، والحذر منه موجب للنجاة منها، وللفوز بالزلفى عند الله في جنات النعيم، ونيل المغفرة والرضى من الرب الكريم، فإن العبد إذا نجا من الإلحاد في أسماء الله وآياته كان متبعًا لكتب الله ولما جاءت به الرسل، وهذا الطريق الموصل إلى السعادة الأبدية، وإذا فاته هذا الطريق فما ثَمَّ إلا طرق الجحيم.

ولما كان أكثر الناس قد سلكوا طرق المهالك، واقتطعتهم الشياطين عن سعادتهم إلا النادر منهم، وكانت النفس مجبولة على وحشة التفرد وعدم الرفيق، حث المصنف رحمه الله على لزوم الاستقامة وإن قل الموافق وكثر المخالف، فقال:

لا توحشنك غربة بين الورى ... فالناس كالأموات في الجبان

أوما علمت بأن أهل السنة الـ ... ـغرباء حقًا عند كل زمان

قل لي متى سلم الرسول وصحبه والتابعون لهم على الإحسان

من جاهل ومعاند ومنافق … ومحارب بالبغي والطغيان

وتظن أنك وارث لهم وما … ذقت الأذى في طاعة الرحمن

كلا ولا جاهدت حق جهاده … في الله لا بيد ولا بلسان

منتك والله المحال النفس فاستـ … ـحدثت سوى ذا الرأي والحسبان

لو كنت وارثه لآذاك الألى … ورثوا عداه بسائر الألوان

وكل هذا من حكمة الله تعالى، حيث جعل لأهل الحق من يعارضهم ويقاومهم، ويحرص على أذيتهم وردّ ما معهم بأي طريق، ليقوم بذلك سبيل الجهاد، وليتبين الحق من الباطل، فإن الحق إذا عارضه الباطل وأهله ظهر من أدلته وبراهينه ما يبهر العقول، ووضح واستعلن، وتبين من بطلان الباطل وفساده ما به العبرة لمن اعتبر، وليحصل بذلك التمييز بين الصادق من الكاذب، فإن المؤمن الصادق المتبع للحق على الحقيقة لا تزيده المعارضات إلاّ ثباتًا على ماهو عليه، ويزداد إيمانه ويكمل إيقانه، بخلاف من لم يباشر الإيمان قلبه، ولم يصل اليقين في حقه إلى مرتبة الجزم الذي لاشك فيه، فهذا لا يكاد يثبت عند المحن والقلاقل، فإنه ممن يعبد الله على حرف، فمع العافية المستمرة ربما لزم ماهو عليه، ومن لطف الله في حق هذا أن لا يقيض له من المحن ما يزيل إيمانه بل يعافيه، وإلا فسنة الله الجارية التي لا تغير ولا تبدل أنه لابد من الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ

أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت/ ١ ـ ٣]، فلو سلم أحد من المعارضين من المعاندين والمنافقين والمحاربين لسلم الرسول وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، فمن ظن أنه متبع لهم على الحقيقة وأنه سيسلم من الأذى في سبيل الله فهو غالط، فإنه لابد أن يكون للرسول وأصحابه وراث، ولأعدائهم وراث، ويقوم سوق الجهاد، فإن الدنيا دار مجاهدة وعبادة، لا محل طمأنينة واستقرار، فإن الراحة التامة في جنات النعيم، ومن المعلوم أن الراحة لا تدرك بالراحة، بل لابد من التعب والعناء، ولكن قد يهونه الله على عباده المؤمنين فيجدون من لذة المجاهدة في طاعة ربهم أعظم مما يجده أهل الشهوات الحسية، وهذا هو الواقع، ولكن مرارة الابتداء تمنع أكثر الناس عن هذا الأمر العظيم. ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

وهذا النوع هو زبدة رسالة الله لرسله، فإنه كل نبي يبعثه الله تعالى يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، فكل نبي يقول لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل/ ٣٦]، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وأمرهم

به على ألسنة رسله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب في الدنيا والآخرة لمن قام به، والعقاب في الدنيا والآخرة لمن تركه، وبه الفرق بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه من كل وجه، فيعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته، ويعرف شواهده وأدلته وبراهينه وحججه التي تؤيده وتنميه وتقويه، ويعرف شروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لاتصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع، فأمّا حَدُّهُ وتفسيره وأركانه ومكملاته فقد ذكرها المصنف في ضمن قوله:

هذا وثاني نوعي التوحيد تو ... حيد العبادة منك للرحمن

أن لا تكون لغيره عبدًا ولا ... تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ ... إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك ... التوحيد كالركنين للبنيان

فحده أن يعلم العبد أن الله هو المألوه المعبود على الحقيقة، فيفرده بأنواع العبادة كلها الظاهرة والباطنة، يعني أنه يقوم بالإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها من الأعمال الظاهرة، وبالإيمان كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والتزام القيام بما أوجب الله وترك ما حرم الله، وبالإحسان كالقيام بحقائق العلم والإيمان والأعمال الصالحة، وهي روحها ولبها المقصود منها، فيقوم بذلك كله خالصًا لوجه الله تعالى متابعًا فيه

سنة رسوله محمد ﷺ.

وهذان الركنان الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ركنان، وإن شئت قلت: شرطان لكل عباة ظاهرة وباطنة، فكل عبادة خلت منهما أو من أحدهما فهي باطلة غير معتد بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/ ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر/ ٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك/ ٢]. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه، قالوا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[١]: **«من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد»**. وفي رواية لمسلم: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**.

وحقيقة هذا التوحيد أنه يسمى توحيد الإلَهية، بالنسبة إلى وصف الله المقتضي لأن يكون هو المحبوب المألوه المعظم المعبود وحده، ويسمى توحيد العبادة بالنسبة إلى وصف العبد، الذي هو إخلاص جميع أنواع العبادة التي شرعها الله ورسوله لله تعالى، فالإلَهية وصف الله تعالى، والعبودية وصف العبد، ولهذا جمع الله بين الأمرين في قوله لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾

(١) عن عائشة رضي الله عنها.

[طه/ ١٤]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم/ ٣٦]، وقول الرسل لأممهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وإذا علمنا أن هذا حده وتفسيره، فمن المعلوم أن الداخلين في هذا الاسم متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وأنه بحسب قيام العبد بالإسلام والإيمان والإحسان والأعمال الصالحة علمًا وعملاً وحالاً تكون مرتبة العبد في التوحيد وكماله فيه، والأجر والثواب في الدنيا والآخرة على هذا الأصل، بل كل خير في الدنيا والآخرة فإنه من آثار التوحيد وثمراته، كما أنه كل شر في الدنيا والآخرة فمن آثار ترك التوحيد.

ثم فسر المؤلف الإخلاص والمتابعة فقال:

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا	**د فلا يزاحمه مراد ثاني**
لكن مراد العبد يبقى واحدًا	**ما فيه تفريق لدى الإنسان**

يعني أن الإخلاص حقيقة أن يوحد العبد مراده ومقصوده، فتكون نيته وإرادته متعلقة بالله وحده لا شريك له، فلا يكون لهذا المراد مزاحم يزاحمه من الأغراض النفسية، بل يكون وصف العبد الإخلاص لله على الدوام، ويقوم بما يقوم به من الأعمال مستحضرًا لهذا المعنى الشريف، خاليًا من الرياء والمقاصد المخالفة لهذا المقصود، وبهذا يكون العمل صالحًا مقبولاً مثمرًا للثواب.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله**

ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه[(١)]. فتفاوت بين العملين وصورتهما واحدة بحسب تفاوت النية والمقصود. وكذلك لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه[(٢)].

فعلى العبد أن يجاهد نفسه على الدوام في كل فرد من أفراد العبودية على أن يقصد به وجه الله وحده لا شريك له، ويجتهد في دفع الخواطر المنافية لذلك، ليكون الإخلاص له وصفًا وخلقًا، وهو روح التوحيد والأعمال الصالحة، وتمام ذلك أن يراعي متابعة الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله الظاهرة والخفية، وذلك تحقيق شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فينفي الإلّهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده، ويتحقق بمعناها، ويصدق الرسول في خبره ويطيعه في أمره.

ثم ذكر نموذجًا من الأدلة الدالة على التوحيد والعبادة فقال:

إن كان ربك واحدًا سبحانه	**فاخصصه بالتوحيد مع إحسان**
أو كان ربك واحدًا أنشاك لم	**يشركه إذ أنشاك رب ثاني**

---

(١) من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري.

فكذاك أيضًا وحده فاعبده لا تعبد سواه يا أخا العرفان

يعني إذا كنت مقرًا بأن ربك واحد فهو الخالق الرازق المربي لك ولسائر المخلوقات، فخصه بالتوحيد والأعمال الصالحة، فإذا علمت أنه الذي أنشأك وحده من غير مشارك له ولا معاون، فكذلك اعبده وحده لا تعبد غيره ممن لم يكن كذلك. وهذا الدليل ـ وهو الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة توحيد العبادة ـ كثيرًا ما يذكره الله في كتابه، ويستدل على المشركين الذين ينكرون توحيد الألوهية، فيلزمهم بأقوالهم توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)﴾ [يونس/ ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ [المؤمنون/ ٨٤ ـ ٨٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا دليل واضح جدًا ينتقل الذهن منه إلى المدلول بأول وهلة، فإنه إذا كان من المعلوم المتقرر عند كل أحد حتى المشركين بالله أن الله هو الخالق وحده المدبر لجميع الأمور، وكل ما سواه مخلوق مدبَّر، فإن العقل والفِطَر يجزمان بتعين عبادة الله وحده، وأنه المستحق للعبادة دون من سواه ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا

ولا حياة ولا نشورًا، ولا له من الكمال ما يقتضي أن يعبد لأجله.

واعلم أن أدلة التوحيد كثيرة جدًا يعسر عدُّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، ولكن سنتقل هنا عبارتنا في التفسير على قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآيه [محمد/ ١٩].

قلت: العلم لابد فيه من إقرار القلب ومعرفته بما طلب منه علمه، وتمامه العمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد معه عقله، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إلَه إلا الله أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن

هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن معرفة ذلك والعلم به يوجب العلم بأنه لا إلَه إلا الله، وبطلان إلَهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولاً ورأيًا وصوابًا وعِلمًا وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إلَه إلا هو، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لابد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطآت واتفقت، وقامت براهين التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم في قلب العبد بحيث يكون أعظم من الجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه

إلا نموًا وكمالاً. هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله مالا يحصل في غيره، إلى آخر ما ذكرته على تلك الآية الكريمة.

وهذه المذكورات أجناس وأنواع للأدلة، لو فصلت وبسطت لبلغت شيئًا كثيرًا.

قال المصنف في «مدارج السالكين»[1] لما ذكر توحيد المبطلين والمثبتين:

فصل

وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمٰواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضاءه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع حد الإفصاح، كما في أول الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول تنزيل السجده وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

(١) جـ٣ ص٤٤٩ مطبعة أنصار السنة.

النوع الثاني: مثل ما تضمنه سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران/ ٦٤]، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الطلبي الارادي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ونهيه وأمره فهو من حقوق التوحيد ومكملاته. وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عن حكم من خرج عن التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فالحمد لله توحيد، رب العالمين توحيد، الرحمن الرحيم توحيد، مالك يوم الدين توحيد، إياك نعبد توحيد، إياك نستعين توحيد، اهدنا الصراط المستقيم توحيد، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد.

ثم أطال الكلام في هذا الموضع بما لا يستغني عنه المؤمن.

والصدق توحيد الإرادة وهو ... بذل الجهد لا كسلاً ولا متواني

والسنة المثلى لسالكها فتو ... حيد الطريق الأعظم السلطاني

فلواحدٍ كن واحدًا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

يعني أن التوحيد لا يتم إلا بثلاثة أمور:

توحيد المراد، وهو الإخلاص كما تقدم.

وتوحيد الإرادة، وهي أن لا تكون الإرادة متقسمة، بأن يبذل العبد جهده ومقدوره في القيام بما أمر الله به علمًا وعملاً ووصفًا من غير كسل ولا تواني ولا انحلال عزيمة، فهذا حقيقة الصدق.

وتوحيد الطريق، وهو اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا.

ثم أجمل الثلاثة في قوله: فلواحد أي الله وحده، وهو الإخلاص، كن واحدًا أي مجتمع الإرادة والقصد والعمل، وهو الصدق، في واحد وهي المتابعة، فسره بقوله أعني سبيل الحق والإيمان، أي وما سواها من الطرق فإنها طرق الغي والضلال والكفر والوبال.

هذي ثلاث مسعدات للذي ... قد نالها والفضل للمنان

فإذا هي اجتمعت لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان

يعني أن من اجتمعت له هذه الأمور الثلاثة بأن يكون الإخلاص

خلقه ووصفه، وأعماله مقرونة به، والصدق والاجتهاد قرينه وحامله، واتباع الرسول طريقه، فهو السابق حقًا، المستولي على الغاية التي لا غاية فوقها، والكمال الذي لا كمال فوقه، وحصلت له السعادة والفلاح، والفوز والأرباح، فإن تخلف كمال العبد وحرمانه مداره على فقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

لله قلب شام هاتيك البرو ... ق من الخيام فهم بالطيران

لولا التعلل بالرجاء تصدعت ... أعشاره كتصدع الحيران

وتراه يبسطه الرجاء فينثني ... متمايلاً كتمايل النشوان

ويعود يقبضه الإياس لكونه ... متخلفًا عن رفقة الإحسان

فتراه بين القبض والبسط اللذا ... ن هما لأفق سمائه قطبان

وبداله سعد السعود فصار مسـ ... ـراه عليه لا على الدبران

لله ذياك الفريق فإنهم ... خصوا بخالصة من الرحمن

شدت ركائبهم إلى معبودهم ... ورسوله يا خيبة الكسلان

يتعجب المؤلف رحمه الله ويستعظم من قلب مَنَّ الله عليه بالتحقق بالصدق والإخلاص والمتابعة، حتى صارت له نعتًا، وصارت رغبته كلها في مراضي ربه في كل وقت، فكلما بدا له منزلة من منازل السائرين وخصلة من خصال العاملين بادر إليها شوقًا ومحبة، وانقاد لها طوعًا واختيارًا، بمنزلة من طالع البروق من خيام الأحبة على بُعْدٍ، فصار قلبه ينازعه، حتى يكاد يَهُمُّ أن

يطير إلى أحبابه ويتمتع بلقائهم، الذي هو ألذ للمحبين، يمر عليهم من أرواحهم، فلولا أن المحب يتعلل بقرب اللقاء ويحدث نفسه باجتماعه بأحبته لتصدعت أعشار قلبه، أي جوانبه، كتصدع الحيران الذي حيره الحب وذهب بشعوره.

كذلك المحب لله تعالى، يجهد نفسه في مراضيه حتى تنمو محبة الله في قلبه، ويحدث له الشوق والقلق، فلولا أنه يلاطف نفسه برجاء اللقاء لذابت نفسه واحترق لبه. ثم إذا نظر إلى نفسه وتقصيره وتخلفه عن رفقة السابقين قبضه اليأس، فتجده بين الخوف والرجاء اللذين هما لعبادته وأعماله كالقطبين في النجوم.

فالعبادات كلها تدور على الخوف والرجاء، فيرجو العبد قبولها وتقريبها لربه، ويخاف من ردها وعدم القيام بها ويحتقرها. إن نظر إلى رحمة الله ولطفه انفتح له باب الرجاء والطمع، وإن نظر إلى تقصيره وما يستحقه الله من العبودية التي لا يمكن العبد القيام بها أحدث له القبض، وباعتدال الخوف والرجاء يعتدل سير العبد، فإذا رجح جانب الرجاء خيف الأمن من مكر الله، وحصل الإدلال والشطح الذي لا يليق بالمخلوق، وإن رجح جانب الخوف خيف منه اليأس والقنوط من رحمة الله.

وهذه المراتب الثلاث المحبة والخوف والرجاء أصل أعمال القلوب، وبها تستقيم الأعمال الظاهرة والباطنة، كما جمعها الله في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء/ ٥٧].

وقول المصنف: وبداله سعد السعود، البيت يحتمل أن مراده بهذا التشبيه أن سير هذا الفريق لما كان مصاحبًا للخوف والرجاء، وكانت روحه المحبة كان سيرًا محمودًا مآله إلى العز والفلاح، والعلو وحصول الأرباح، بخلاف من كان سيره سير البطالين أهل الكسل فإن سيرهم إلى وراء. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر/ ٣٧].

ويحتمل أنه أراد بسعد السعود السير على متابعة الرسول والاقتداء بهديه، وتجنب السير على الدبران، كالسير خلف كل من خالف الرسول. وقوله: لله ذياك الفريق، أي الموصوف بتلك الصفات الحميدة.

وهذا التصغير المراد به التعظيم والتعجب من حسن حالهم وعلو قدرهم، ولهذا قال: فإنهم خصوا بخالصة من الرحمن، أي أخلصهم الله من كل كدر واختصهم بولايته. قال تعالى عن خيار أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص/ ٤٦]، أي جعلنا ذكر الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر. وقوله: شدت ركائبهم إلى معبودهم، هذا هو الإخلاص لله ورسوله بالمتابعة. يا خيبة الكسلان الذي تخلف عن فريقهم، ولم يسلك مسلكهم في طريقهم.

فصل

في بيان ما يناقض هذا التوحيد
من الشرك الأكبر والأصغر ووسائل ذلك

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا ... كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك نوعان: ظاهر، وهو الشرك الأكبر المخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفران، الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة، بل هو من أصحاب النار. وحَدُّه اتخاذ الند للرحمن من الملائكة أو الرسل أو الأولياء أو الحيوانات أو الجمادات، يتقرب إليه كما يتقرب إلى الرحمن بالدعاء والخوف والرجاء والمحبة وسائر أنواع العبادة، فحقيقته أن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وسواء سمى من تقرب إليه بذلك إلهًا أم لا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/ ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون/ ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس/ ١٠٦]، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن/ ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة/ ٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالات على كفر من عبد مع الله غيره

وخلوده في النار.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة قريبة موصلة إلى الشرك الأكبر، إذا لم تصل إلى رتبة العبادة، كالحلف بغير الله والرياء والتصنع للمخلوقين والغلو في الأموات ونحو ذلك، فلا يتم للعبد التوحيد حتى يتبرأ من الشرك كله ظاهره وباطنه، ويخلص لله أعماله كلها.

وهذا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده هو الذي أنكره المشركون على رسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص/ ٥]، وهم مقرون بتوحيد الربوبية، وأنه المالك وما سواه مملوك، ولهذا قال المصنف:

والله ما ساووهم بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان

فالله عندهم هو الخلاق والرزا ... ق مولي الفضل والإحسان

لكنهم ساووهم بالله في ... حب وتعظيم وفي إيمان

جعلوا محبتهم مع الرحمن ما ... جعلوا المحبة قط للرحمن

لو كان حبهم لأجل الله ما ... عادوا أحبته على الإيمان

ولما أحبوا سخطه وتجنبوا ... محبوبه ومواقع الرضوان

شرط المحبة أن توافق من تحـ ... ـب على محبته بلا عصيان

فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًا له ما ذاك ذو إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان

يريد المؤلف رحمه الله قول الله تعالى عن أهل النار حين رأوا بطلان عبادتها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء/ ٩٧ - ٩٨]، أي أنهم ما ساووهم بالله بالخلق والرزق والإحسان، فإن المشركين كما تقدم مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، وإنما سووهم بالله في الحب والتعظيم والعبادة، فأحبوهم مع الرحمن وشركوهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ١٦٥]، فهذا الحب مع الله الذي يقدح في التوحيد فلو كانت محبتهم لهم لله أو لأجله لأحبوا ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، فإن هذا علامة المحبة لله.

وأما من زعم أنه يحب الله ثم عادى أولياء الله وعادى ما يحبه الله من الأعمال، ووالى أعداء الله وما يبغضه من أنواع المعاصي، فهذا كاذب في دعواه. فإن شرط المحبة موافقة المحبوب في محابه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران/ ٣١]، وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة/ ٥٤].

ومن صفات المحبين لله أنهم ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة/ ١١٢].

فالمحبة ثلاثة أنواع:

محبة الله، وهي روح التوحيد وأصل العبادات والتقربات كلها.

ومحبة في الله، وهي محبة ما يحبه الله من أنبيائه وأوليائه والأعمال المقربة إلى الله، وهذه من تمام محبة الله، وبحسب قوة محبة الله تقوى هذه المحبة. ولهذا ورد في الدعاء المشهور: **«اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقرب إلى حبك»**[1].

والثالث: المحبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم مع الله محبة عبودية، وهذه منافية للتوحيد من كل وجه. وثَمَّ محبة طبيعية لا تحمد ولا تذم إلا لآثارها، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الأليف والوطن ونحو ذلك.

ليس العبادة غير توحيد الـ　　　محبة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن حقيقة المحبة هي توحيد المحبة والذل، والتعظيم لله تعالى، فإن العبادة حب كامل وذل تام للمحبوب.

والحب نفس وفاقه فيما يحب　　　ويغض مالا يرتضي بجنان

(١) رواه الترمذي عن أبي الدرداء.

ووفاقه نفس اتباعك أمره　　　والقصد وجه الله ذي الإحسان

هذا هو الإحسان شرط في قبو　　　ل السعي فافهمه من القرآن

والاتباع بدون شرع رسوله　　　عين المحال وأبطل البطلان

فإذا نبذت كتابه ورسوله　　　وتبعت أمر النفس والشيطان

وتَخِذْتَ أندادًا تحبهم كحب　　　الله كنت مجانب الإيمان

يريد رحمه الله أن المحبة في الحقيقة نفس موافقة الله في محبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، وذلك يتحقق باتباع أمر الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ في أصول الدين وفروعه في ظاهره وباطنه، مع الإخلاص لله تعالى وإرادة وجهه الأعلى. وهذه الموافقة المشتملة على المتابعة والإخلاص هي الإحسان الذي قال الله فيه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك/ ٢]، أي أخلصه وأصوبه، وفي قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس/ ٢٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف/ ٣٠].

والمتابعة لا تمكن إلا باتباع الرسول ﷺ، فمن نبذ كتاب الله وسنة رسوله، وتبع أوامر النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، واتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله، خرج من الإيمان من حيث يظن أنه مؤمن، فإن اتخاذ الأنداد من دون الله مناقض لقول لا إله إلا الله، وإن الخروج عن الاهتداء بالكتاب والسنة مناقض لشهادة محمد رسول الله، وما أكثر من هو بهذا الوصف ممن ينتسب إلى الإيمان والتحقيق، كما

قال المصنف:

ولقد رأينا من فريق يدعي الـ   إسلام شركًا ظاهر التبيان

جعلوا له شركاء والوهم وسو   وهم به في الحب لا السلطان

والله ما ساووهم بالله بل   زادوا لهم حبًا بلا كتمان

والله ما غضبوا إذا انتهكت محا   رم ربهم في السر والإعلان

حتى إذا ماقيل في الوثن الذي   يدعونه مافيه من نقصان

فأجارك الرحمن من غضب ومن   حرب ومن شتم ومن عدوان

وأجارك الرحمن من ضرب وتعـ   ـزير ومن سب ومن سجان

والله لو عطلت كل صفاته   ما قابلوك ببعض ذا العدوان

والله لو خالفت نص رسوله   نصًا صريحًا واضح التبيان

وتبعت قول شيوخهم أو غيرهم   كنت المحقق صاحب العرفان

حتى إذا خالفت آراء الرجا   ل لسنة المبعوث بالفرقان

نادوا عليك ببدعة وضلالة   قالوا وفي تكفيره قولان

قالوا تنقصت الكبار وسائر الـ   ـعلماء بل جاهرت بالبهتان

هذا ولم تسلبهم حقًا لهم   ليكون ذا كذب وذا عدوان

وإذا سلبت صفاته وعلوه   وكلامه جهرًا بلا كتمان

لم يغضبوا بل كان ذلك عندهم   عين الصواب ومقتضى الإحسان

والأمر والله العظيم يزيد فو   ق الوصف لا يخفى على العميان

وإذا ذكرت الله توحيدًا رأيت   وجوههم مكسوفة الألوان

بل ينظرون إليك شزرًا مثل ما   نظر التيوس إلى عصا الجوبان

وإذا ذكرت بمدحة شركاءهم   يستبشرون تباشر الفرحان

والله ما شموا روائح دينه   يا زكمة أعيت طبيب زمان

وهذه الأبيات واضحة المعنى. والأمر كما قال المصنف عن هذا الفريق المنتسب للإسلام، الذي يقتضي منهم دينهم تعظيم ربهم، والقيام له بحق العبودية، ولرسوله بحق الرسالة، فعكسوا القضية، فاتخذوا لهم أندادًا من دون الله، يعبدونها ويغضبون لها أعظم مما يغضبون لله، والدليل على هذا أنه لو انتهكت محارم الله لم يغضبوا، وإذا قيل فيما ينتحلونه من ذلك الوثن بعض ما فيه من النقص اشتد غضبهم، ويتباشرون إذا مدحت شركاءهم، وإذا ذكر توحيد الله تغيرت وجوههم واشمأزوا، وكذلك جعلوا لهم رؤساء يطيعونهم في كل حال، وجعلوهم بمنزلة الرسول المعصومة أقواله وأفعاله، فيقدمون طاعتهم على طاعة الرسول، ومن خالفهم لقول الرسول رموه بأنه متنقص لهم مبغض، فهل بقي بعد هذا إيمان، ولكن لكثرة الإمساس قل الإحساس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فنسألك اللهم العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة،

وأن تحفظ لنا ديننا من كل شرك وشبهة وبدعة وضلالة ومعصية، إنك على كل شيء قدير.

تمَّ ما أردت تعليقه، ولله الحمد والمنة والفضل والإحسان، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. فرغت من تسويده في ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٤، وأنا الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي.

وتم نقله من خط المؤلف شيخنا رحمه الله في ٢٠ شوال سنة ١٤١٩، بقلم الفقير إلى الله محمد بن سليمان بن عبدالعزيز آل بسام، غفر الله له ولوالديه ولشيخه وللمسلمين.

بلغ مقابلة وتصحيحًا على نسخة بخط المؤلف، وذلك بحسب الإمكان، بقلم كاتبه وابنه منصور، نسأل الله المغفرة والرحمة في ١٣ ذي القعدة سنة ١٤١٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

تصويبات توحيد الأنبياء والمرسلين

"طبعة دار علم الفوائد ١٤٢٠هـ الطبعة الأولى".

صفحة	رقم السطر	خطأ	صواب
٤١	الأخير	ولو	لو
٤٨	١٥	الوجود	الموجود
٥٤	قبل الأخير	حمداً وذماً	حمداً أو ذماً
٧٤	٦	ليتصنمها	لتضمنها
٨٨	١٠	رواه مسلم	رواه الترمذي
٩٩	٤	رفع	دفع
١٠١	٥	أشار إليه النبي	أشار النبي
١٠٥	١٤	ومن وجودة	ومن جودة
١١٠	٥	القائين	القائمين
١١٩	١٨	أمن	أم من
١١٩	٢٠	الله فقل	الله
١٢٧	٣	كا	كله
١٢٩	١٤	احدا	أحد
١٥٨	٧	٤	٣
١٦٢	١٦	يكون	تكون

تم التصحيح بقلم الفقير إلى مولاه محمد بن سليمان البسام لعام ١٤٢٥/٢/١هـ